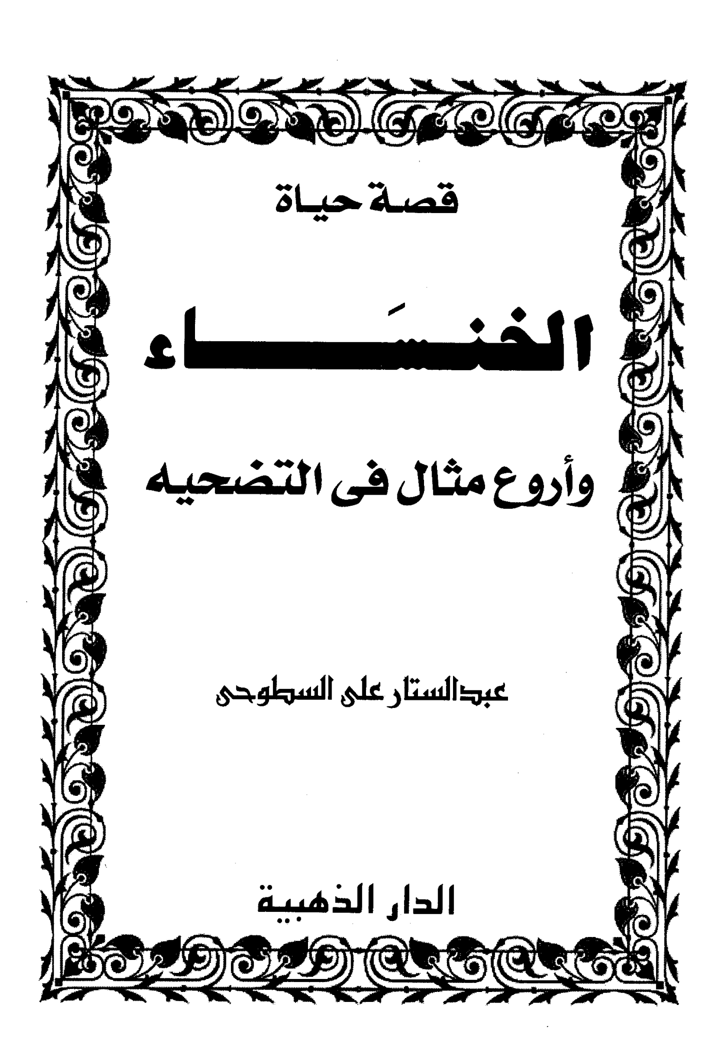


قصة حياة

الخنسَــــاء

وأروع مثال فى التضحيه

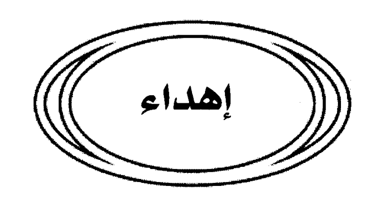
عبدالستار على السطوحى

الدار الذهبية



الدار الذهبية للطبع والنشر والتوزيع

٨ ش الجمهورية - عابدين - القاهرة - ت : ٣٩١٠٣٥٤ - فاكس : ٧٩٤٦٠٣١



إهداء

إلى حفيدى الحبيب «على أنس عبدالستار السطوحى» حيث قد بَدَتْ مخايلُ المّحبة والوفاء إلى رَحِمه، ولا سيما «جّده» الذى طالما يلاعبه ويداعبه بأساليب الطفولة فى بَرَاءتها وصفائها.

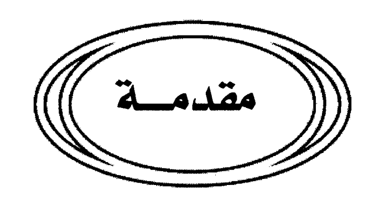
مع الدعاء له ولجيله بالنشأة الإسلامية الصالحة والمستقبل الأفضل.

لَعلَّ فى أُمة الإسلام نابتةً.. تجلو لحاضرها مرآة ماضيها.

جدك

عبدالستار على السطوحى





مقدمة

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله الرحمة المهداة، وبعد:

حينما أراد الله سبحانه وتعالى للبشرية أن تبلغ كمالها الإنسانى اختار لها أفضل الأمكنة قداسة لنزول الروح الأمين على قلب من أرسله رحمة للعالمين. قال تعالى ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾

(سورة الشورى: الآيتان ٥٢، ٥٣)

وظل نور الله وهديه ممثلا فى وحيه سبحانه ثلاثة وعشرين عاما كان ينزل فيها منجما متضمنا رسالة الإسلام العالمية فى مكة المكرمة والمدينة المنورة كلتيهما حتى أتم الله نعمته على خلقه ورضى لهم الاسلام دينا صالحا لكل زمان ومكان يحمل فى إعجاز قرآنه خيرى الدنيا والآخرة معا.

وكان من فضل الله ورحمته أن مهد لأمة العرب التى نزل القرآن الكريم بلغتها: وهيأ لها من الإرهاصات الإلهية والآيات الربانية قبيل البعثة المحمدية بقرن ونصف قرن من الزمان ـ وهو العصر الذى يطلق عليه مؤرخو الأدب اسم «العصر الجاهلى» ـ من ألوان الفصاحة والبلاغة والقيم العليا والإبداع الفنى والقيادة الحربية ما يلائم روح الدين الذى سيحملون رسالته ويبلغونها إلى الأمم

جميعا فى هذا العالم.

وقد أفرز هذا العصر عباقرة الحكمة وقادة الرأى والشورى ودعاة السلم وذلك فيما سمى بأسواق العرب التى اشتهر منها سوق عكاظ وسوق مَجنَّة وسوق ذى المجاز تلقى فيها روائع القصائد والخطب والحكم وكان فيها من كبار الشعراء حكام يحكمون بتميز قصيدة على كل ما سمع من القصائد فى السوق فتكتب بماء الذهب وتعلق على أستار الكعبة وهذه القصائد هى التى سميت بالمعلقات.

وكان النابغة الذبيانى حكما فى سوق عكاظ فكان الحكم الألمعى والناقد الملهم لفنون الشعر العربى الذى هو منحة السماء لأمة العرب خاصة حتى أصبحت تتميز بأنها الأمة الشاعرة.

وفن الشعر هو الفن الأم لكل الفنون الإنسانية من موسيقى تهز أوتار القلوب السليمة ومن صور تشخص الأطياف الهائمة ومن نحت يجسد الأرواح الطاهرة ومن فكر سديد وخيال محلق ومن عاطفة مشبوبة بالخير والجمال والعدل ومن ثم فقد قرظه إمام المرسلين وخاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه بقوله «إن من البيان لسحرا وإن من الشعر لحكمة».

هذا ومن يمن الطالع لقبائل «سُلَيم» التى ولدت الخنساء على ثراها أن كان جوارهم لمكة المكرمة حيث أول بيت وضع للناس مباركا وهدى للعالمين- جوارا متاخما للمدينة المنورة التى شرفها الله ورسوله بجعلها حرما آمنا ومنطلقا للفتوحات الإسلامية فى كل أنحاء المعمورة حتى عم السلام والإيمان والأمان وحتى طهر ثرى جزيرة العرب المخضوب بالدم وصفا جوها الذى كان مشتعلا بالنار.

ونعيش مع قبائل «سليم» وما أنعم الله عليها به من هذا الجوار المبارك زمانا ومكانا فموقع هذه القبائل كما حدده جغرفيا ياقوت الحموى فى كتاب «معجم البلدان» حيث يقول: أما معدن سليم فهو المدينة المنورة فى جنوبها ويلتقى مع الطريق الموصل إلى مكة المكرمة».



كـمـا يـحـدثنا نســابو الـعـرب بـأن بيت «سليم» من أعظم بيـوت العـرب فى الجـاهليـة والإسـلام وصدق الـرسـول الكريـم صلوات الله عليه وسـلامه فى قـوله «خياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسـلام إذا فقهوا» وذلك لما كان لهذه القبيلة من آثار حميدة حينما دخلت الإسلام.

ولا عـجب ان تكون هذه القـبيلة العظيمـة «سليم» هى التى أنجبت شـاعرة الشواعر التى دفعت أولادها إلى البطولة والاستشهاد فى معركة واحدة هى معركة القادسية كما سنفصل ذلك.

إن الخنسـاء فـخـر الأمـهـات المسلمـات وأمـيـرة الشـواعـر العـربيـات التى استـحسن الرسـول ﷺ شـعرها واسـتزادها بقوله «هيـه ياخناس» والتى يشـرف قلمنا بأن يرسم لها صـورة مشرقة تليق بهذا المثل الرائع للأمهات الخالدات والله سبحانه ولى التوفيق.

عبدالستار على السطوحى





أسرة الخنساء وأثرها فى شخصيتها

اسم الخنساء «تماضر» بنت «عمرو» من آل الشريد من قبيلة «سُلَيْم» وكلمة «تماضر» تعنى «الجميلة البيضاء» ولقبت «بالخنساء» إذ كان فى أنفها خنس زادها جمالا ، فشهبت فى خنس أنفها بالظبى.

ونُقِل عن دائرة المعارف الإسلامية أن أبا الخنساء كان من ذوى الجاه والثراء، كما تحدث ابن قتيبة فى كتابه «المعارف» (ص٤١ ط أوربا) عن نسب سليم فقال: «وأما سليم بن منصور فولده بهثة، وولد بهثة امرأ القيس وعوفا . ومن قبائل سليم : بنوخزام ، وبنو خفاف وذكوان وبهز ورفاعة وظفر وبجلة وحبيب بن مالك، وبنو الشريد بيت من سليم، منهم الخنساء وأخواها صخر ومعاوية ، وهم أولاد عمرو.

ويقول ابن حجر فى الإصابة : «إن سليما وفدت إلى النبى ﷺ لاعتناق الدين الجديد (أى الإسلام) سنة ثمان للهجرة».

وتقول المصادر إن «الخنساء» صاحبت وفد سليم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم . ويقول القلقشندى فى «نهاية الأرب فى معرفة كلام العرب» (ص٦١ ط القاهرة ١٩٥٩) : «إنه ثبت فى صحيح مسلم أن أبا الخنساء - وهو عمرو بن الشريد - قال :

«ردفت النبى ﷺ يوما - فقال: «هل معك من شعر أمية بن أبى الصلت؟» قلت : نعم . فقال: «هيه» فأنشدته بيتا فقال: هيه»، فأنشدته بيتا آخر، فقال: «هيه» فأنشدته بيتا آخر حتى أنشدته مائة بيت ، فقال صلوات الله وتسليمه عليه : «إنه كاد ليسلم فى شعره».

أما أخواها «معاوية» و«صخر» فكانا سيدى قومهما، وكان صخر أخاها لأبيها، وأما معاوية فكان شقيقها، ولكن صخرا لدماثة خلقه وسخاء يده وبطولته الفائقة فى ميادين الحرب وإنسانيته العليا فى حبه لعشيرته.. كل ذلك جعله أثيرا فى سويداء قلبها ، فمن ثم كان أقوى تأثيرا فى تفجير ينابيع الشعر الباكى الحزين أكثر من شقيقها معاوية، كما يقول ابن حجر فى «الإصابة» إنه كان أحبهما إليها ، فمن ثم كان حظ صخر من رثائها أكثر من حظ معاوية، وإن كان لكل منهما مكانته الراسخة فى قلبها يؤيد هذا ما ينقله صاحب «أعلام النساء» ط ص ٢/٣- ط دمشق ١٩٤٠» إذ قال:

«وقيل للخنساء صفى لنا أخويك صخراً ومعاوية فقالت: كان صخر والله جنة الزمان الأغبر وزعاف الخميس الأحمر وكان والله معاوية القائل الفاعل. قيل لها: فأيهما كان أسنى وأفخر؟ قالت: أما صخر فحر الشتاء وأما معاوية فبرد الهواء قيل لها: فأيهما أوجع وأفجع؟ قالت أما صخر فجمر الكبد وأما معاوية فسقام الجسد» وأشارت تقول:

أَسَدانِ مُحْمَرَّا المخالب نَجْدةً ∴ بحران فى الزمن الغضوب الأغبر

قَمَرانِ فى النّادى رفعًا محتد ∴ فى المجد فَرْعَا سُؤْدُد مُتَخَيَّر

وقد أورد أبوتمام فى الحماسة (جـ١ ص٢٩٩) أن الخنساء قالت فى أخيها صخرا

دَلّ على معروفِهِ وجْهُه ∴ بُورك هذا هادياً من دليلْ
تَحسَبُه غضبانَ من عِزّه ∴ ذلك منه خُلُقٌ ما يحُول
وَيْلُمّهِ مسْعَرَ حَرْبٍ إذا ∴ ألقِى فيها وعليه الشَّليل

فكرم صخر يبدو فى تهلل وجهه عند العطاء وإن كان خلقه الطبيعى الصرامة وعبوس الوجه لا يعرف الهزل لمكانته الرفيعة أما فى الحرب فهو البطل الفتاك إذا دخلها لابسا درعه القصيرة فويل لمن يعلن عليه الحرب.

وإذا كان أبوالخنساء «عمرو بن الشريد» روايا للشعر كما رأينا فى موقفه مع الرسول ﷺ وكانت ابنته الخنساء شاعرة بل هى فى نظر النقاد أميرة الشواعر فإن لأخيها صخر أشعارا تدل على أصالة موهبة الشعر فى طبعه. ومما روى له صاحب «العقد الفريد» وصاحب «الأغانى» أبيات فى مرضه الذى أصابه من الطعنة التى أصابه بها ربيعة بن ثور الأسدى بعد أن أظهر صخر فى قتال بنى أسد بطولة عظيمة فمرض صخر من هذه الطعنة مرضا امتد حولا فسمع امرأة من جاراته تسأل امرأته «سليمى» كيف بعلك؟ فقالت: لا حيٌّ فيرجى ولا ميت فيُنسى، لقد لقينا منه الأمرين. وكانت تسأل أمه فتقول «أرجو له العافية إن شاء الله» فأنشد صخر فى ذلك مقارنا بين موقفى أمه الصادقة المشاعر ولزوجته التى سكن إليها.

يقول صخر فى ذلك:

أرَي أمَّ صخرٍ لا تملُّ عِيادتي ∴ وَملَّتَ سُلَيْمَى مَضجعى ومكانِى
فَأيُّ امرئٍ سَاوَي بأمٍّ حليلةً ∴ فلا عاش إلا فى شَقاً وهَوَانِ
وما كنتُ أخشي أن أكونَ جنازةً ∴ عليكِ ومن يغترُّ بالحدَثَانِ
لعَمْري لقد نَبّهتِ من كان نائما ∴ وأسْمعتِ من كانت له أذنان
أهُم بأمرِ الحزمِ لو أستطيعه ∴ وقد حِيلَ بين العَيْرِ والنزوَانِ

وكانت النظرة الثاقبة والمنطق الرشيد الذى تميزت به أبيات صخر متفقة مع التوجيهات الإسلامية التى عرفها العرب والمسلمون بعد ذلك فى مثل قوله تعالى «ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله فى عامين» «سورة لقمان الآية ١٤» وفى مثل قوله ﷺ: «الجنة تحت أقدام الأمهات».

ومن شعره ما رثى به أخاه معاوية مثل قوله:

إذا ما امرؤٌ أهدى لَميتٍ تحيةً ∴ فحيَّاك ربُّ الناس عنى معاويا

لنعم الفتى أدَّى ابنُ صرمة بزَّه ∴ إذا راح فحلُ الشَّوْل أحدَبَ عاريا

إذا ذُكرِ الإخوانُ رقرَقْتُ عَبْرَةً ∴ وَحيَّيْتُ رَمْساً عند لَبةَ ثاويا

وطيَّبَ نفسى أننى لم أقل له ∴ كذبتَ ولم أبخلْ عليه بما ليا

وذى إخوةٍ قطعتُ أقرانَ بينهم ∴ كما تركونى واحداً لا أخا ليا

«ابن صرمة» هو قاتل معاوية، وأدى بزه أى رد على أهل معاوية ما أخذه من سلاحه، «وراح فحل الشول أحدب عاريا» اى صار فحل الإبل أحدب مقوس الظهر عاريا من اللحم بسبب الجدب؛ و«الرمس»: القبر، و«لبة» المكان الذى فيه قبر معاوية.

ويعبر صخر عن اعتزازه بأخوة معاوية، ويذكر انه انتقم من بنى مرة الذين قتلوه، فقتل منهم كثيرا ليفرق بين كل أخ وأخيه، كما فعلوا به إذ فرقوا بينه وبين معاوية.

كما كانت ابنة الخنساء «عمرة بنت مرداس» شاعرة، وكانت تتخذ من أمها مثلا، فقد كان لها أخ شقيق وأخ لأبيها كما كانت أمها كذلك، وكانت تحبهما وقد رثت كلا منهما، هكذا كانت أسرة الخنساء الفتاة والأم.. كانت تفيض شاعرية وفنا.





بيئة الخنساء

قد رأينا أثر أسرة الخنساء فى شاعريتها، فقد كان أبوها كما عرفنا راوية للشعر، وكان أخوها صخر شاعرا عرضنا بعض نماذج من شعره، ثم كانت الخنساء شاعرة، وكانت ابنتها «عمرة» بنت «مرادس» شاعرة، كما كان ابنها عبدالله بن رواحة شاعرا وردت له أبيات فى ردته عن الإسلام.

كان هذا فى أسرة الخنساء ولا نعجب إذ قد عرفنا أن منازل قبيلة «سُليم» كانت على مقربة من الحرمين الشريفين فى مكة والمدينة، وأن نفحات الحرمين قد شملت هذه القبيلة كما شملت غيرها من القبائل المجاورة، فقد أخرجت هذه البيئة الطاهرة من بنى سليم أبطالا وشعراء مثل معاوية وصخر والخنساء أولاد عمرو بن الشريد كما أفرزت من القبائل المجاورة فحول الشعراء الذين حلقوا بشعرهم الخالد إلى سماء ما طاولتها سماء: حكمة وفكرا وصياغة وفناً رفيعا وإبداعا جميلا، ونذكر منهم على سبيل المثال زهير بن ابى سلمى المزنى الذى قدره أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأثنى عليه بقوله «لو كان زهير حيا لوليته قضاء أمة الاسلام لأنه جمع مقومات القضاء فى بيت واحد إذ يقول:

فإنَ الحقَّ مَقْطَعُه ثلاثٌ ∴ يمينٌ أو نفارٌ أو جلاء

واذا كان هو قول عمر رضي الله عنه فى زهير فان عمر رضي الله عنه هو الذى وصفه الرسول ﷺ بسداد الرأى إذ قال فيه: «لم أر عبقريا يفرى فريه» وفى هذه البيئة التى جمعت قبائل سليم ومن جاورها كانت «سلمى» أخت زهير وكان أبوه وخاله

من قبله شعراء، كما ظهر فيها أيضا «كعب بن زهير» الذى أحرز جائزة الرسول ﷺ بقصيدته العصماء الخالدة فى تاريخ الشعر العربى، إذ خلع ﷺ بردته على كعب تقديراً لهذه القصيدة الخالدة التى كانت مدحا للرسول ﷺ واعتذاراً عن هجاء سابق له قبل أن يدخل الإسلام.

وإذا كان الرسول ﷺ قد قدر هذه القصيدة هذا التقدير فهو تقدير ممن آتاه الله جوامع الكلم وهو القائل: «ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه»

وقصيدة كعب هذه هى المشهورة فى الأدب العربى باسم «بانَت سعاد» وهو مطلعها إذ يقول:

بانَتْ سعادُ فقلبى اليومَ مَتبُولُ ∴ مُتَيَّمٌ إثْرَها لم يُفْدَ مكبُولُ

وما سعادُ غَداةَ البَيْنِ إذْ برزت ∴ إلا أغنُّ غضيضُ الطرف مكحولُ

ولما وصل فى إنشادها إلى قوله:

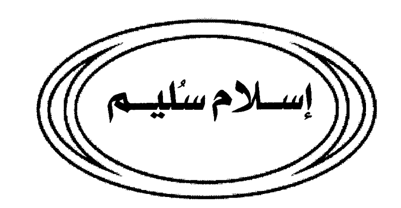
إنَّ الرسولَ لَنُورٌ يُستَضَاءُ به ∴ مُهَنَّدٌ من سيوفِ الله مَسلُولُ

فى عصبة من قريش قال قائلهم ∴ ببطن مكة لما أسلموا زولوا

زالوا فمازالَ أنكاس ولاكشف ∴ عند اللقاء ولا ميل معازيل

خلع الرسول ﷺ عليه بردته.

هكذا كانت بيئة بنى سليم والبيئات المجاورة لها، وهكذا أنبتت هذه البيئات هذه النماذج العالية فى الشعر وما يقتضيه من قوة العاطفة والصدق فيها ومن إحاطة باللغة والقدرة على استخدامها فى التصوير والإبداع فلا عجب أن تنشأ فيها شاعرة الشواعر «الخنساء».



إسلام سُليم

كانت قبيلة «سليم» تختلف عن غيرها من القبائل فى العصر الجاهلى، فقد كانت قبائل العرب بصفة عامة لا تلتزم باحترام الحرمات والمقدسات، إذ لم يكن يعنيها إلا مصالحها المادية وحاجاتها المعيشية التى تدعوها إلى الغزو والعدوان على غيرها من أعدائها، لتعود من هذا الغزو والعدوان بالغنائم أو لتحل محل المقهورين فى أرض معشبة أو حول ماء، وكانت هذه الأشياء أهم مقومات الحياة فى البيئات البدوية، لذلك لم يكن لشىء عندهم حرمة حتى الاشهر الحرم أو الأماكن المحرمة.

أما قبيلة سليم فقد كانت حريصة كل الحرص على رعاية هذه الحرمات والمقدسات، ولم يعرف عنها أنها دخلت حربا فى الأشهر الحرم إلا مرة واحدة فى يوم الفجار الثانى المعروف «بيوم «نخلة»

وبسبب رعاية سليم للمقدسات والحرمات «فإن صخرا» حين أراد أن يتعرف على قاتل أخيه معاوية لم يجد خيرا من أن يذهب إلى أعدائه فى الشهر الحرام وهو مطمئن أنه لن يعتدى على أحد ولن يعتدى عليه أحد رعاية لحرمة هذا الشهر.

وهذا الخلق ـ خلق رعاية الحرمات والمقدسات ـ هو الذى جعل «سُلَيما» تذهب إلى النبى ﷺ فى المدينة لتعتنق الإسلام دينا، وكانت الخنساء مع الوافدين من «سليم» إلى النبى ﷺ، وقد سمع ﷺ شعرها واستزادها بقوله: «هيه يا خناس» وكان ذلك سنة ثمان من الهجرة.

واذا كان خلق «سليم» فى رعاية الحرمات قد قرب بينها وبين الإسلام فإن هناك عاملا آخر قد يكون له أثر فى اتجاه سليم إلى الإسلام، وهو الاستظلال براية الإسلام فى مواجهة أعدائها بنى مرة وغطفان الذين كانوا أعداء للاسلام.

ويشهد لذلك قول «سلمى» بنت «عميص» الكنانية وكانت قبيلتها «كنانة» فى عداء وحرب مع قبيلة «هوازن» وحليفتها «سليم»:

فَوَاللَّهِ لولا رَهْطُ آلِ محمدٍ ∴ للاقت سُلَيْمٌ بعدَ ذلك ناطِحاً

ويروى هذا البيت برواية أخرى:

ولولا مَقالُ القوم للقوم اسْلِموا ∴ للاقت سُلَيْمٌ بعدَ ذلك ناطِحاً

وظل عداء مرة «وغطفان» للإسلام حتى غزوة حنين فى العام الثامن للهجرة بعد فتح مكة، وإن كنا لم نعلم فى أى أشهر السنة الثامنة للهجرة كان إسلام «سليم» هل كان قبل فتح مكة وغزوة حنين أم كان بعدهما؟ على أى حال فإن قبيلة «سليم» دخلت الإسلام، فكان منها المؤمنون الثابتون عليه، وكان منهم الخاضعون لقوته حتى إذا لاحت لهم فرصة الارتداد عنه بعد وفاة الرسول ﷺ ارتدوا منكرين للزكاة التى كانوا يرونها إتاوة يفرضها القوى على الضعيف وقد انضم هؤلاء المرتدون من «سليم» إلى طليحة الأسدى ومن هؤلاء المرتدين «عبدالله أبوشجرة» وهو ابن الخنساء من زوجها الأول رواحة بن عبدالعزى وعبدالله هذا هو الذى يقول:

ألاَ أيُّهــا المُدْلِي بِكَثْرةِ قومِهِ ∴ وحَظُّكَ منهم انْ تُضَامَ وتُقْهَرَا

ويقول فى هذه القصيدة:

فَرَوَّيْتُ رُمْحِي من كتيبة خالدٍ ∴ وإنِّى لأرجو بعدَها ان أُعَمَّرَا

ولكن هؤلاء المرتدين رجعوا إلى الإسلام بعد انتصار خالد بن الوليد عليهم

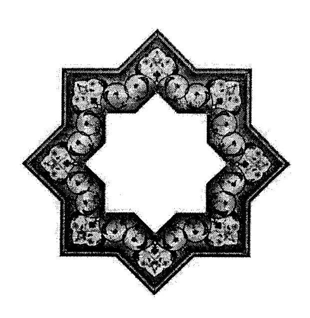


والقضاء على حركة طليحة.

وقد أبلى بنو سليم تحت راية الإسلام بلاء أكد ولاءهم للإسلام وأبان عن صدق إسلامهم.

وكان العباس بن مرداس- ابن زوج الخنساء الثانى- من الفرسان المعدودين. وكان أول الأمر من المؤلفة قلوبهم حتى حسن إسلامه وكان من شعراء النبى ﷺ وقد خاض مع الجيوش الإسلامية معارك كان فيها بطلا معدودا وفارسا مشهودا حتى استشهد فى الشام فى السنة السادسة عشرة من الهجرة.

وقد ذكرنا قبل أن أبا الخنساء عمرو بن الشريد كان قد ردف النبى ﷺ يوما وأن الرسول ﷺ استنشده من شعر أمية بن أبى الصلت فأنشده واستزاده النبى ﷺ حتى أنشده مائة بيت.





في هذه البيئة الصالحة، وفى هذه الأسرة المجيدة نبتت الخنساء، وكانت هى البنت الوحيدة فى الأسرة، لذلك كانت موضع اهتمام والدها وأخويها وحدبهم، فنشأت فتاة قوية الشخصية، حرة الفكر، سديدة الرأى، جياشة العاطفة، وتلك أهم مقومات الشاعرية، فصارت بذلك أميرة شواعر العرب على اختلاف عصورهن.

كما كان لهذه النشأة أثرها فى حريتها وجرأتها فى مواجهة أخطر موقف تواجهه فتاة وهو موقف خطبتها، إنها حين تعرضت لهذا الموقف كانت ثائرة على العرف المألوف فى الجاهلية، إذ لم يكن لأى فتاة رأى فى اختيار زوجها، وإنما يختاره أبوها أو أخوها أو شيخ القبيلة.

كان ذلك حين رآها «دريد بن الصمة» فارس قبيلة جشم وشاعرها وسيدها وكان حليفا لأخيها معاوية كما كانت قبائل «هوازن» ومنها قبيلة «جشم» حليفة لقبيلة بنى سليم.

رأى «دريد» «الخنساء» وهى تهنأ الإبل التى أصابها الجرب وكانت فى ملابس مبتذلة حتى فرغت فخلعت ثيابها واغتسلت وارتدت ثيابها رآها فى كل هذه الأحوال فأعجب بجمالها وفتنتها الجسدية فقال متغزلا فيها:

حَيُّوا تُماضرَ وارْبَعوا صَحْبى ∴ وقِفُوا فَإنَّ وقوفكم حَسْبى

أَخُناسُ قَدْ هَامَ الفؤادُ بكُمْ ∴ وأصابه تَبَلٌ [1] من الحُبِّ

---

(١) يقال قلب متبول إذا غلبه الحب وهيمه.

مــا إنْ رأيت ولا ســمــعتُ بَه ∴ كــاليــوم هانىءَ أيْنُق جُــرْبِ
مــتــبَــذّلاً تَبْــدُو مــحــاسِنُه ∴ يَضَعُ الهَنَاءَ مَــواضعَ النَّقْبِ

وتقـدم «دريد» لخطبـتـهـا وهـو بكل مـا عـرفنا من صـفـاته جـديـر بأن تقـبل خطبته أية فتاة فى ذلك العصر الجاهلى من أوليائها دون اعتبار لقبول الفتاة أو رفضها.

ومع المصادر الأدبيـة والتاريخيـة لتحدثنا عن موقف الخنسـاء الفتاة، ذلك الموقف العظيم.. من خطبة من يملك الجاه والمال والفروسية والشعر الذى هو فن العرب الرفيع حيث يحدثنا أبوالفرج الأصفهانى فى كتاب (الأغانى، جـ١ ص ١٠ ط الساسى) فيقول:

فلما أصبح «أى دريد» غدا على أبيها فخطبها إليه، فقال أبوها: «مرحبا بك أبا قرة»، إنك للكريم لا يطعن فى حسبه، والسيد لا يرد عن حاجته، والفحل لا يقرع أنفه، ولكن لهذه المرأة «يعنى الخنساء» فى نفسها ماليس لغيرها «أى ماليس لغيرها من الفتيات أو ماليس لغيرها من الأولياء» وأنا ذاكرك لها وهى فاعلة.

ثم دخل إليها وقال «يا خنساء» أتاك فارس هوازن وسيد بنى جشم- دريد ابن الصمة- يخطبك وهو من تعلمين» وكان دريد يسمع حديثهما فقالت «يا أبتِ أترانى تاركة بنى عمى مثل عوالى الرماح وناكحة شيخ بنى جشم هامة اليوم أو غد؟«تقصد قرب نهاية حياته»

فخرج إليه أبوها فقال «يا أبا قرة قد امتنعت ولعلها أن تجيب فيما بعد» فقال دريد «قد سمعت قولكما» وانصرف.

ويروى ابن الكلبى أنها قالت لأبيها: «أنظرنى حتى أشاور نفسى» ثم بعثت وليدة خلف دريد «وقالت لها «انظرى دريدا إذا بال فإن وجدت بوله قد خرق الأرض ففيه بقية، وإن وجدته قد ساح على وجه الأرض فلا خير فيه»، فعادت

الوليدة إليها وقالت إن بوله قد ساح على وجه الأرض. حينئذ سكن وجيب[1] قلبها مستشرفا فتى أحلامها من بنى عمومتها.

وكان لرفض الخنساء خطبة دريد بن الصمة دويه فى الأوساط العربية عامة، فهو فارس الفوارس، وشاعر الشعراء، وأثرى الأثرياء، وصاحب الراية الخفاقة فى كل ملحمة وناد.

أما فى نفس دريد وقلبه فقد كان هذا الرفض أنكى من السهام المسمومة، فمن ثَم استشاط غضبا ونفس عن نفسه الجريحة بقصيدة يهجو فيها الخنساء نذكر منها قوله:

وَقَاكِ اللهُ يا ابنةَ آلِ عَمْرو ∴ من الفِتْيانِ أَمثالِى ونَفْسِى

فَلا تَلدِى ولا يَنكَحْكِ مِثْلى ∴ اذَا ما ليلةٌ طَرَقَتْ بِنَحْسِ

وتَزعُم أنَّنى شيخٌ كبيرٌ ∴ وهَلْ خَبَّرْتُها أنِّى ابنُ أَمْسِ؟

فهو لا يدعو لها بالصون حقيقة، إنما يدعو عليها بألا تتزوج من أمثاله من الرجال العظماء ولا تلد لهم.

وقد كان لهذا الهجاء من قلب مكلوم رد فعل جميل من الخنساء زادها نبلا وحكمة حيث حدثنا الاصفهانى فى «الأغانى جـ٩ صـ١٠/١٢ ط الساسى» فقال «فقيل للخنساء: ألا تجيبينه بشعر»؟ فقالت «لا أجمع عليه أن أرده وأهجوه».

وفى تحليل هذا الموقف من خطبته دريد، سواء من الخنساء أو من والدها أو من أسرتها نقول:

كان هذا الموقف من الخنساء تمردا على العرف السائد فى الجاهلية، حيث لم يكن للفتاة حق فى نفسها وفى اختيار شريك حياتها، وكان هذا الرفض من

---

(١) وجب القلب وجيباً إضطرب.



الخنساء لخطبة دريد اتجاها جديدا فى حق المرأة فى اختيار زوجها، وكان هذا الاتجاه نابعا من الفطرة الإنسانية التى فطر الله الناس عليها، وكان سنة حسنة فى الجاهلية تتفق مع التعاليم التى سيأتى بها الإسلام، فهى سنة إسلامية قبل أن يأتى الإسلام بنوره ويضىء قلوب العرب وعقولهم.

كما كان موقف والدها وقوله لدريد «إن لهذه المرأة فى نفسها ما ليس لغيرها» تأكيدا لهذه الفطرة الإنسانية الثائرة على العرف الجاهلى، فالأب يقرر بنفسه أنه لا حق له ولا لغيره فى توجيه حياة ابنته، وأنها فى وضع يختلف عن أوضاع سائر الفتيات فى عصرها وبيئتها، فليس لأية فتاة منهن من الحق فى نفسها ما لهذه الفتاة من حق فى نفسها.

واذا كان الوالد هو الذى يقرر ذلك بنفسه فإن ذلك يعنى أنه ربى ابنته على حرية الرأى وسلامة الفكر وحسن النظر فى الأمور طبقا للفطرة الإنسانية التى حرص على أن ينشئها عليها.

ومثل ذلك يمكن أن يقال عن موقف أسرتها، فبالرغم من أن أخويها معاوية وصخرا من سادات العرب وأبطالهم ورؤسائهم وبالرغم من أن «دريدا» كان حليفا لهما وقبيلته الكبرى هوازن وقبيلته الصغرى جشم كانتا حليفتين لبنى سليم فإن أحدا منهما لم يعترض على رفض الخنساء لخطبة دريد.

وإذا كنا نقول إن موقف الخنساء كان سنة جديدة تتفق مع الشريعة التى سيأتى بها الإسلام فإننا نذكر أن الإسلام قد قرر هذا الحق للمرأة فى أن تقبل زواج الخاطب أو ترفضه وذلك فى قول رسول الله ﷺ الذى رواه أبوهريرة رضي الله عنه إذ قال: «لا تنكح الأيم حتى تستأمر، ولا البكر حتى تُستأذن» قالوا: يا رسول الله كيف إذنها؟ قال «أن تسكت»

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن جارية بكرا أتت رسول الله ﷺ فذكرت له أن أباها زوجها وهى كارهة فخيرها رسول الله ﷺ بين فسخ الزواج أو الإبقاء

عليه وقد قالت الجارية بعد ذلك: قد أمضيت ما فعل أبى ولكنى أحببت أن يعرف النساء أنه لا حق للآباء فى إكراههن.

فالمرأة التى سبق لها الزواج لابد أن تعلن رأيها صريحا ورأيها أمر كما هو مفهوم من قوله ﷺ «تستأمر» أى يطلب منها الأمر صريحا بالقبول أو الرفض، أما بالنسبة للبكر فإن حياءها يمنعها من أن تعلن رأيها صريحا، فموافقتها أو إذنها بسكوته،ا وإذا كانت رافضة فإنها تلتمس الأعذار معتذرة عن عدم ملاءمة ظروفها للزواج.

ونذكر أن فى عصرنا هذا نماذج من الانتكاس إلى الجاهلية ومخالفة شريعة الإسلام ورحم الله أمير الشعراء أحمد شوقى إذ يقول فى فلسفة الزواج

المالُ حَلَّلَ كُلَّ غيـرِ محلَّلٍ ∴ حتَّى زواجَ الشِّيبِ بالأبكارِ

سَحَرَ القلوبَ فَرُبَّ أمٍّ قَلْبُها ∴ من سِحْرِه حَجَرٌ من الأحجار

دَفَعَتْ بُنيَّتَها لأشأم مَضجعٍ ∴ ورَمَتْ بها في غُربة وإسارِ

ما زُوِّجَتْ تلك الفتاةُ وإنما ∴ بِيعَ الصبا والحُسْنُ بالدينار

ومما شاع من هذه النماذج تزويج فتيات صغيرات من شيب من أثرياء منطقة الخليج العربى أو أثرياء من داخل مصر.

ونحن فى هذا الموقف نذكِّر الفتيات بحقوقهن التى شرعها الله فى شريعة الفطرة الإنسانية، وهى شريعة الإسلام ونذكرهم بأن فتاة فى العصر الجاهلى رفضت ما تخضع له فتيات فى العصر الحاضر.

ونخص بهذه التذكرة الفتيات المتعلمات والجامعيات نذكرهن بحقوقهن التى تمسكت بها الخنساء فى العصر الجاهلى.



الخنساء الزوجة

تزوجت الخنساء بعد رفضها خطبة دريد بن الصمة- زوجين من بنى عمومتها الذين فضلتهم على دريد.

الزواج الأول

تقدم اليها خاطبًا أحد أبناء عمومتها وهو «رواحة بن عبدالعزى السلمى» فقبلته زوجا وكان شابا يفيض بكل مقومات الشباب فى العصر الجاهلى، فهو شاب لاهٍ كما يلهو أمثاله من الشباب، منهم من كان لهوه الخمر كما يقول عنترة العبسى:

فاذا شربت فإننى مستهلك ∴ مالى وعرضى وافر لم يكلم

ومنهم من كان لهوه بالخمر وأنواع الملذات والشهوات كما يقول طرفة بن العبد:

ومازال تشرابى الخمور ولذتى ∴ وبيعى وإنفاقى طريفى ومتلدى[1]

اما رواحة بن عبدالعزى فكان لهوه الميسر يبذل فيه كل ما جمعه من غزواته حتى كان لا يبقى لنفسه وأهله شيئا، حتى كانت الخنساء تضطر إلى الاستعانة بأخيها صخر الذى كان يقسم ماله مناصفة بينه وبين أخته، بل قيل إنه كان يقدم إليها خير نصف.

ومع هذا الضيق فى المعيشة الذى كان يصيب الخنساء كثيرا فى حياتها مع رواحة فإنها لم تضق بزوجها، فهى تعلم أن هذه طبيعة الشباب فى هذا العصر بل

(١) الطارف والطريف: المال المستحدث، وضده التالد.

إنها هى نفسها قدرت هذا الإتلاف للمال، وعدته مفخرة لأخيها صخر فى رثائها له إذ تقول:

حسيب لبيب متلف ما أفاده ∴ مبيح تلاد المستغش[1] المكاشح[2]

على أن المصادر التاريخية تختلف فى حديثها عن نهاية هذا الزواج، وإن كان الجميع يتفقون على أن مدته كانت قصيرة، ولم تنجب فيه من زوجها رواحة إلا ولدا واحدا هو «عبدالله بن رواحة» وكنيته «أبوشجرة» وسنتحدث عنه مع أولاد الخنساء.

وتذكر بعض المصادر أن رواحة طلقها، وتذكر مصادر أخرى أنه خرج مرة للغزو فقتل.

ولم يؤثر عن الخنساء أنها رثت هذا الزوج إذا كان قد قتل حقيقة، وسواء أكان الطلاق أو قتل رواحة هو نهاية زواجهما، فإنه لم يؤثر عن الخنساء شعر تذكر فيه رواحة أو حياتها معه.

ويرى بعض الباحثين أنها ربما تكون قد رثته فى بواكير شعرها التى لم تكن بلغت مبلغ النضوج فأهملت وضاعت ولم تسجل لها.

الزواج الثانى

ولعل القدر الإلهى قد عوضها ما فاتها مع الزوج الأول من سعادة فى الحياة الزوجية ومن سكن النفس ورغد العيش وتجاوب فى الطبع وإنجاب يغمر الحياة الزوجية بالسعادة والحبور.

يقول «ابن قتيبة» فى «الشعر والشعراء» صـ١٦٧ ط اوروبا» «ثم خلف عليها مرداس بن أبى عامر السلمى»

---

(١) استغشه ضد نصحه. (٢) الكاشح: الذى يضمر لك العداوه.



وكان هذا الزواج كما يقول المؤرخون قبيل البعثة المحمدية لأن القرائن تشير الى ذلك، إذ إن أبناءها من زوجها الثانى «مرداس بن أبى عامر» قد اشتركوا فى موقعة القادسية سنة ١٦ هجرية وكان المعروف فى سنن الحرب آنذاك ان الأحداث لم يكن يؤذن لهم بالانضمام إلى صفوف المجاهدين، ومن ثم فقد كان هؤلاء الأبناء شبابا أو رجالا، وقد استشهدوا جميعا فى موقعة القادسية هذه، كما سنبين ذلك فى أمومة الخنساء.

وكان مرداس من بنى عمومتها أيضا وكان سيدا معطاء ذا ثراء واسع حتى لقب بالفيض لكرمه وجبره لعثرات الرجال، ولم يكن ذا لهو وإتلاف فى خمر أو ميسر كزوجها الأول.

ومن ثم نستطيع أن نقول إن حياتها مع «مرداس» كانت حياة هادئة مطمئنة متجاوبة مع هذه النفس العالية الطموح الشاعرة: نفس الخنساء، وإن كانت لم تسجل ذلك فى شعر أو ربما كان لها فى ذلك شعر ضاع مع الكثير من شعرها وأشعار غيرها.

وقد رزقها الله منه ثلاثة أبناء وبنتا واحدة وإن كانت بعض المصادر قالت إنهم أربعة أبناء ولم تذكرهم، أما المصادر التى ذكرت أن لها من مرداس ثلاثة أبناء فقد ذكرتهم وهم: يزيد ومعاوية وعمرو وأما البنت فهى عمرة. وسنذكر ذلك فى الحديث عن أمومة الخنساء ويبدو من تعدد أولاد الخنساء من مرداس أن حياتها معه طالت وإن لم تعرف مدتها على التحقيق، ولكنها عاشت معه حتى مات فرثته بقصيدة تعد من روائع شعرها تقول فيها:

لما رأيتُ البدر أظلمَ كاسفًا ∴ أرَنَّ شواذُ بطنُه وسوائلُهْ

رنينًا وما يغنى الرنينُ وقد اتى ∴ بموتكِ من نحو القُرَيَّة حامله

لقد خار مرادسا على الناس قاتلُه ∴ ولو عاده كنَّاته وحلائلُه

وقلن الا هل من شفاء يناله ∴ وقد مَنعَ الشفاءَ من هو نائله

وفَضَّل مرداسا على الناس حلمُه ∴ وأَنْ كلَّ همّ همَّه فهو فاعلُه
وأَنْ كلَّ وادٍ يكرهُ الناس هبطَه ∴ هبطتَ وماءٍ مَنْهَلٍ انت ناهلهْ
تركتَ به ليلا طويلا ومنزلا ∴ تعاوى على ظهر الطريق عواسِلهْ
وسَبْيٍ كآرام الصريم تركته ∴ خلالَ ديارٍ مستكيناً عواطلُهْ
وعُدْتَ عليهم بعد بؤسٍ بأنْعُم ∴ فكلهمُ تُعنَى به وتواصَلهْ
متى ما توازنْ ماجدًا تعتدِلْ به ∴ كما عَدَلَ الميزانَ بالكفَّ راطلهْ

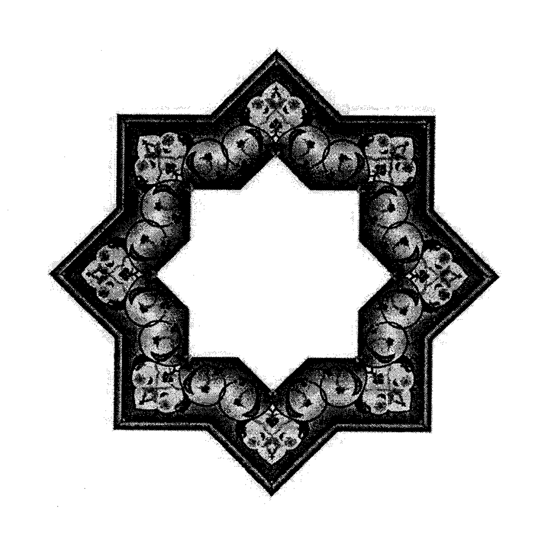
***

فهى تستهل رثاءها لزوجها مرداس بأنها حينما رأت البدر فى السماء قد كسف فاحتجب ضوؤه فخالجها شعور معتم وانقباض، أحست أن وراءه حدثا خطيرا، ظنته فرسان الحى قادمين ومثار النقع فوق رؤسهم كأنه قطع من الليل البهيم، كما أحست أن صداه يرن فى جنبات الوادى عاليه وأسفله وقد تعودت من هذه الظاهرة الكونية مقدم زوجها الكمىٍّ يقود فرسانه، ولكنها سرعان ما أفاقت من هذا الحلم حين أنبأها الرسول بموته، فلما أفاقت على الحقيقة المرة أخذت فى الحديث عن مرادس حيث تقول إن قاتله تخيره من بين أقرانه لعلو مكانته بين أهله وشجاعته فى صفوف جيشه، حيث طعنه قاتله طعنة لا يجدى معها علاج، فاذا حم القضاء على امرئ فلا جدوى من طب ولا مداواة، وأن نساء أهله جميعا قد بذلن له كل أساليب العلاج، غير أن قضاء الله إذا نفذ فلا مرد له، ثم أخذت فى لوعة وحسرة وتصوير شعرى يثير الأشجان تذكر مناقبه العليا كسيد فى قومه وفارس مقدام مقتحم لكل ميدان، وهو يجمع إلى هذه السيادة وهذا التفوق الحربى أخلاقا إنسانية عليا من حلم ودماثة خلق كما تبدو شهامته ومروءته نحو نساء عدوه حيث يتعفف عن سبيهن، فيتركهن كآرم الصريم أى كالظباء الأليفة ثم



يعود من حومة الوغى حاملا الغنائم الكثيرة التى يقسمها بين الفقراء والمساكين يفرج بها كربهم ويوسع بها ضيق حياتهم.

ثم تختم قصيدتها هذه بأن جعلته قد جمع كل الصفات الحميدة ولو وزن فى ميزان دقيق مع أى ماجد لرجحت كفته.





ذكرنا من قبل أن الخنساء لم تنجب من رواحة بن عبدالعزى إلا ولدا واحدا هو عبدالله وكنيته «أبوشجرة» وأنها أنجبت من مرادس بن أبى عامر ثلاثة أبناء هم: معاوية وعمرو ويزيد وبنتا واحدة هى «عمرة» وقد ذكرنا موقف عبدالله أبى شجرة من الإسلام إذ دخله مع قبيلته ثم ارتد عنه بعد وفاة الرسول ﷺ ثم عاد إليه بعد انتصار خالد بن الوليد وقضائه على حركة طليحة الأسدى.

كما ذكرنا من قبل أنه كان لقبيلة سليم - وفيها أبناء الخنساء - بلاء عظيم فى الجهاد فى سبيل الله لنشر الإسلام.

وقد شهد أولاد الخنساء معركة القادسية التى كان يقودها سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه ضد الفرس فى عهد الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وكان للخنساء مع أولادها مواقف تتفق مع ما طبعت عليه من اعتزاز بالحرية الشخصية ومن تقدير للبطولة وتمجيد لها.

ونبدأ حديثنا عن الخنساء مع أولادها بالحديث عن موقفها من ابنها عبدالله حين ارتد عن الإسلام مع بقائها هى وغيرها من بنى سليم عليه، فإنها لم تعترض على ارتداده، ولم تحاول إرجاعه إلى حظيرة الإسلام. وهذا الموقف نابع من تقديرها للحرية الشخصية التى آمنت بها وتمسكت بها لنفسها وهى فتاة، فكيف تحرص على الحرية لنفسها وتحرمها ابنها عبدالله؟! لذلك تركته يمارس

حريته فى الردة ثم فى العودة إلى الإسلام.

أما أولادها الآخرون فقد ذكرت بعض المصادر أن ابنها يزيد قد قتل فى ثأر قيس بن الأسلت وعلى هذا لم يكن أولادها الأربعة فى معركة القادسية كما ذكرت بعض المصادر بل كانوا ثلاثة وعلى قول مصادر أخرى وأن أبناءها فى معركة القادسية كانوا أربعة فإن يزيد لم يقتل ثأرا وإنما شارك فى موقعة القادسية واستشهد فيها سنة ١٦ هـ وقد شهدت أمهم الخنساء معهم هذه الموقعة. أما موقفها مع أبنائها فى هذه المعركة فقد كان موقفا بطوليا نابعا من حبها للبطولة وتقديرها لها وحرصها على أن يكون أبناؤها أبطالا، تدل على ذلك وصيتها لهم ليلة موقعة القادسية وهذه الوصية وإن كان بعض النقاد ينكرها لعدم ذكر المؤرخين القدماء لها ولما فيها من مجافاة للحقيقة فى ذكرها لأبنائها أنهم بنو أب واحد وأم واحدة والحقيقة أنهم ليسوا كذلك، وإنما عبدالله كان ابن رواحة ويزيد ومعاوية وعمرو كانوا أبناء مرداس، كما أن رواتها يختلفون فى بعض عباراتها ذكرا أو حذفا وتقديما او تأخيرا.

على أية حال فإن هذه الوصية- سواء كانت منها حقا أولم تكن فإنها تتفق مع طبيعة الخنساء وعشقها للبطولة ورغبتها فى أن يكون أولادها أبطالا تسجل أسماؤهم فى سجل الخالدين.

ونص الوصية كما ذكرها ناشر ديوان الخنساء «ص١١» وكما ذكرتها صاحبة الدر المنثور «ص١١١»:

«يا بنى إنكم أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين، والله الذى لا إله إلا هو إنكم لبنو رجل واحد كما أنكم بنو امرأة واحدة، ما هجنت حسبكم، ولا غيرت نسبكم، واعلموا أن الدار الآخرة خير من الدار الفانية. اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون. فاذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها وجللت نارا على أرواقها فتيمموا وطيسها، وجالدوا رسيسها، تظفروا بالغنم والكرامة فى دار

الخلد والمقامة».

فلما أضاء الصبح لهم باكروا إلى مراكزهم فتقدموا واحدا بعد واحد ينشدون أراجيز يذكرون فيها وصية العجوز حتى قتلوا عن آخرهم فبلغ الخبر إليها قالت «الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقر الرحمة»

والخنساء التى قضت عمرها بعد مقتل أخويها باكية عليهما وبخاصة أخوها صخرُ فرثاؤها له لم ينقطع.. هى الخنساء التى لم تبك أولادها ولم تنشئ فيهم بيت رثاء.

وقد علل بعض من كتبوا عن الخنساء ذلك بأن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد أعطاها أرزاق أولادها الأربعة، ويرى هؤلاء الكتاب أن حصولها على أرزاقهم يشبه ما كان سائدا فى الجاهلية من أن أخذ دية القتيل يمنع إظهار الحزن عليه أو رثاءه، فهى لم ترثهم لأنها حصلت على أرزاقهم، فكأنها اخذت دياتهم.

ونرى نحن أن هذا التعليل غير مقبول فإن عمر ﵁ عنه لم يعطها أرزاق أولادها لتتساهم ولا تذكرهم فى قصيدة رثاء، وإنما على ما نرى أنها كانت فرحة باستشهادهم وبأن مثواهم الجنة يخلدون فيها وينعمون برضوان الله وما أعد لهم فى جنات النعيم.

هذا إلى أنها ترى فيهم البطولة التى تعتز بها وتقدرها فهى باستشهادهم فرحة سعيدة.

ولعل هذا هو الفرق بين موقفها من استشهاد أولادها وعدم رثائها، وموقفها من مقتل أخويها وبخاصة صخر الذى استمر رثاؤها له طول حياتها، فصخر قتل غير شهيد فمقتله يثير الحزن فى نفسها لاسيما مع ما نعلم من حنوه عليها وحبه لها.

وإن كان هذا لا يمنع من أن تذكر بطولاتهم واستشهادهم فى سبيل الله، وتذكر فرحتها بدخولهم الجنة فى قصيدة رثاء لا حزن فيها.. وهذا مالم يحدث ولا ندرى لذلك سببا.

وهكذا كانت الخنساء مثلا أعلى فى الأمومة ضربت أروع مثل فى دفع أبنائها إلى البطولة الخالدة فى الفتوحات الإسلامية، وأعظم ما فى ذلك أنها استصحبت أولادها إلى الجهاد فى سبيل الله لنشر دينه ورفع راية الحق الذى جاء به الإسلام فى معركة القادسية التى تم بها فتح بلاد الفرس، مؤمنة بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ (سورة التوبة: الآية ٢٤).

***

كان هذا هو أثر أمومة الخنساء فى أبنائها الأربعة، أما أثرها فى ابنتها «عمرة بنت مرداس» فإنها قد أورثتها شاعريتها وتمجيدها للبطولة والأخلاق النبيلة فى شعرها.. وقد رأت عمرة أمها تمجد فى أخيها صخر بطولته وشجاعته وكرمه وعفته وغير ذلك من القيم الفاضلة فإذا هى ايضا ـ مثل أمها ـ تمجد هذه القيم والأخلاق فى شقيقها يزيد وفى أخيها لأبيها عباس بن مرداس فى رثائها لهما.

ومن رثائها لشقيقها يزيد قولها.

أَجَدَّ ابن أمّىَ ألاّ يثوبا ∴ وكان ابنُ أُمى جليداً نجيبَا

تَقِيّا نَقِيّا رحيب المقام ∴ كَمِيّا[1] صليبا لبيبا خطيبا

حليما أريبا إذا مابدا ∴ سديد المقالةِ صلباً دريبا

---

(١) الكمىّ: الشجاع المتغطى بالدروع وأدوات الحرب.

وكانت عمرة تحب أخاها لأبيها عباسا كما كانت أمها تحب أخاها لأبيها صخرا، وقد رثت عباسا وقد مات فى الشام سنة ١٦ هجرية وكان من فرسان الفتوح الإسلامية

ومن رثائها له قولها:

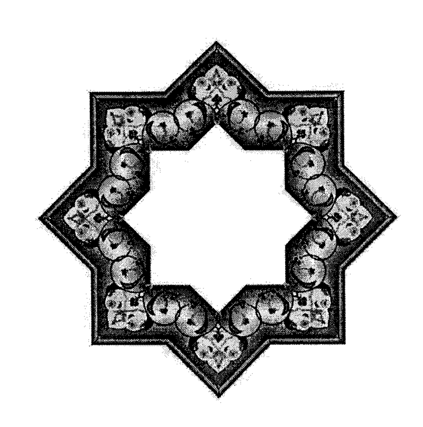
لتبكِ ابنَ مرادس على ما عراهُمُ ∴ عشيرته إذ حُمَّ أمسى زوالها

لدى الخصم إذ عند الأمير كفَاهم ∴ فكانَ إليه فصلُها وحلالُها

ومعضلةٍ للحاملين كفيتها ∴ إذا أنهَكَتْ هوجَ الرياحِ طِلالُها

***

وهكذا كانت الخنساء مثلا أعلى لابنتها عمرة فى شاعريتها وفى تقديرها للبطولة وللقيم الفاضلة بل فيما تميزت به الخنساء من حب عظيم لأخيها لأبيها صخر.





شخصية الخنساء

من خلال ما عرفنا من شعر الخنساء و أخبارها ومواقعها فى حياتها نتبين أن شخصيتها كان أهم مقوماتها الصفات الآتية:

١ - الشجاعة:

فقد كانت فى غاية الشجاعة فى أهم مواقف حياتها وهو خطبتها كفتاة.. فقد رفضت خطبة دريد بن الصمة وهو سيد بنى جشم وفارسهم، غير عابئة بما قد يجره هذا الرفض، لاسيما أن دريدا كان حليفا لأخيها معاوية، كما كانت قبيلته حليفة لقبيلة «سليم».

كما يبدو تعلقها بالشجاعة كصفة تفخر بها فى أخويها معاوية وصخر، بل كانت أهم صفة تعتز بها فيهما وتكثر من وصفهما بها فى رثائها لهما، ومن ذلك قولها فى وصفها:

أسدانِ مُحْمَرا المخالبِ نجدةً ∴ بَحْرانِ فى الزمنِ الغضوبِ الأغبرِ

وقولها فى صخر:

وَيْلُمّه مِسْعَرَ حربٍ إذا ∴ أُلْقِى فيها وعليه الشليل[1]

---

(١) الشليل: من باب شلَلَ، وشلَّ الثرب إذا خاطه خياطه خفيفه.

وقولها فيه أيضا:

رَدَّادُ عاريةٍ فَكَّاك عانيةٍ ∴ كضَيْغم باسل للقِرْنِ هصّارُ

ومن شجاعتها وتقديرها للشجاعة وحثها عليها قولها:

فقد جرت العاداتُ أنَّا لدى الوغى ∴ سنظفرُ والإنسانُ يبغى الفوائدا

وقولها:

شُدُّوا المآزرَ حتى يُستَدَفَّ لكم ∴ وشَمِّروا إنها أيام تَشمارِ

وهكذا يفيض شعر الخنساء بإظهار شجاعتها وتقديرها للشجاعة والبطولة، وقد ظلت تتغنى بذلك طوال حياتها فى أخويها ولاسيما صخر.

٢- العصبية القبلية:

وهذه العصبية- وإن كانت طبيعة فى عرب الجاهلية، رجالا ونساء- كانت فى الخنساء أظهر وأوضح، فلم يكن تعصبها لقبيلتها فى الحياة العامة فقط، بل تعدى ذلك إلى المصاهرة، فى حين لم يكن لدى القبائل العربية ما يمنع من أن تتزوج المرأة فى غير قبيلتها إذا خطبها سيد من سادات قبيلة أخرى أو أحد أثريائها أو فرسانها وأبطالها، ولكن الخنساء أبت إلا ان تقيم أمر زواجها على هذه العصبية إذ رفضت سيد بنى جشم وفارسها دريد بن الصمة، قائلة لأبيها: «أترانى تاركة بنى عمى كأنهم عوالى الرماح»؟.

٣- الترابط الأسرى:

إن اقتصار شعر الخنساء على رثاء أخويها له دلالته على ارتباطها بأسرتها من آل الشريد، وإن كان هذا الارتباط فرعا من الترابط القبلى بين كل رجال القبيلة ونسائها.

وإذا كانت الخنساء لم تخرج فى شعرها عن نطاق الأسرة فإن أخويها اللذين وقفت شعرها على رثائهما لم يكونا بطلين فى أسرة آل الشريد فقط،، وإنما كانا بطلين تشرف بهما قبيلة بنى سليم كلها، ولذلك فإننا نستطيع أن نقول إن الترابط الأسرى الذى ربط شعر الخنساء بآل الشريد، إنما كان فى الواقع أيضا ارتباطا بالقبيلة.

تقول فى رثاء صخر والحض على الثأر له:

وسوفَ أبكيكَ ما ناحت مطوَّقَةٌ .·. وما أضاءت نجومُ الليل للسارى

ولا أسالمُ قوما كنتَ حَرْبَهُمُ .·. حتى تعودَ بياضًا جُؤْنَةُ القارِ

وتقول أيضا:

ألا أبلغا عن سُلَيْمًا وعامرًا .·. ومن كان من عُليا هوازن شاهدا

بأن بنى ذبيانَ قد أرصدوا لكم .·. إذا ما تلاقيتم بألاً تعاودا

٤- السلبية:

ونعنى بها عدم تدخلها فى حياة أولادها أو اختياراتهم، وإذا كان ذلك بدافع تقديرها لحريتهم فى اختيار حياتهم، فلم يكن هناك ما يمنع أن يكون لها رأى استشارى، يقبله ابنها أو يرفضه بحريته، فالمشورة لا تتعارض مع حرية الاختيار.

ومن سلبيتها أنها لم تتدخل فى ارتداد ابنها أبى شجرة، لم تَنْهَهُ عن ردته ولم تؤيده فيها ولم تشر عليه برأى فيها، ولم يرد عنها أنها تدخلت فى حياة أىٍّ من أولادها، إلا ماروى من وصيتها لأبنائها ليلة موقعة القادسية، فربما كان هذا هو الموقف الإيجابى الوحيد لها فى حياة أولادها، وهو على أى حال موقف عظيم رائع من أم نحو أولادها فى دفعهم إلى البطولة حتى استشهدوا جميعا فى هذه الموقعة، وكانت سعيدة باستشهادهم وبرضوان الله عليهم وإدخالهم الجنة.

ومع ذلك لم تقل فى هذا الموقف شـعـرا، ولم ترث أبناءها الأربعـة الذين استشهدوا فى هذه الموقعة.

أما حياتها الخاصة فلم يرد عنها ما يدل على إيجابية إلا رفضها لخطبة دريد، وأتجاهها إلى بنى عمومتها لتتزوج منهم.

وتبدو سلبيتها أيضا فى موقفها من علة أخيها صخر التى حدثت من الطعنة التى أصابته، وامتدت به هذه العلة قرابة عام حتى أودت بحياته، فإنها فى سؤالها عنه لم تسأل عن علته وعن جدوى العلاج فيها وعن احتمالات شفائه منها، ولم تظهر جزعا فى سؤالها عنه و لم ترج له الشفاء، وإنما كل ما عناها أن تسأل عن صبره وجلده واحتماله لعلته، فكان كل ما يعنيها أن يكون جلداً صبوراً فى احتمال علته.

وقد سمعها صخر وهى تسأل: كيف كان صبره، فقال ردا عليها:

أجـارتَنا إنَّ الخطـــوبَ تنوبُ ∴ على الناس كلَّ المخـطئين تصيبُ

فإن تسأليني: هل صَبَرْتَ فإنني ∴ صبورٌ على ريب الـزمانِ صليبُ

كـأنيَ وقـد أدنَوْا إليَّ شِـفـارهم ∴ من الصبرِ دامى الصفحتين ركوبُ

٥- المحافظة على العادات والتقاليد:

عاشت الخنساء معظم حياتها وزهرة شبابها فى الجاهلية، فظلت متأثرة بالأخلاق والمثل الجاهلية، وقد كان لشجاعتها التى تميزت بها أثر فى صمودها لكل جديد يخالف ما شبت عليه ولازمها طوال حياتها من المثل والأخلاق.

وبعد أن نعمت الخنساء بالدخول فى الإسلام- ظل تمسكها بالعادات الجاهلية فى إظهار حزنها على أخويها بلبس صدار من الشعر وحلق الرأس وتعليق النعلين على جانبى رأسها تلطمان خديها.

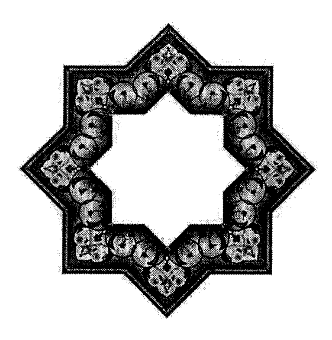


وقد ورد أن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها- وكانت الخنساء كثيرة التردد عليها- قد لامتها على ذلك، وكان ذلك بعد انتقال الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى، وإذ لم يرد نهى من الرسول صلى الله عليه وسلم لها عن ذلك فإنه يبدو أنها حين وفدت مع قومها عليه صلى الله عليه وسلم لم تكن تلبس صدار الشعر أو تكشف رأسها المحلوق، فلما كشفت ذلك بعد رحيله صلى الله عليه وسلم لامتها عليه أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، كما نهاها عنه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين رآها كذلك فى البيت الحرام، فقال لها: «إن فى الناس من هم اعظم مرزئةً منك، وإن الإسلام قد غطى ما كان قبله، وإنه لا يحل لك لطم وجهك وكشف رأسك».. فكفت عن ذلك، وجاء فى شعرها ما يؤكد تخليها عن هذه العادات إذ تقول:

فلا وابيكِ ما سلَّيْتُ صدرى ∴ بفاحشةٍ أتيتُ ولا عقوقِ

ولكنّى وجدتُ الصبرَ خيرًا ∴ من النعلينِ والرأسِ الحليق

ومن ذلك نرى أن الخنساء لم تتخل عن هذه العادات الجاهلية إلا مرغمة بتعاليم الإسلام، وذلك يدل على أثر العادات الجاهلية والمحافظة عليها فى شخصيتها.







أولا: نصيب المرأة من فنون الشعر الجاهلي:

كان أبرز أغراض الشعر العربى فى العصر الجاهلى وأكثرها شيوعا فيها الغزل والفخر والوصف والرثاء.

وكان حظ الرجال من هذه الأغراض شاملا لها جميعا، فالرجل هو الذى يتغزل، وهو الذى يفخر بنفسه وبقبيلته، وهو كذلك يصف ويرثى، ولكن رثاء الشاعر لم يكن نواحا ولا جزعا أو حزنا على الميت، وإنما كان الرثاء من الشعراء للأبطال الذين قتلوا فى ساحة الوغى إعلانا للتصميم على الثأر لهم.

أما المرأة فليس من شأنها أن تتغزل على الإطلاق، وكذلك لم يكن من شأنها أن تفخر بنفسها، فإذا فخرت فإنما تفخر برجال قبيلتها الذين يخوضون المعارك ضد القبائل المعادية ببطولة وشجاعة، حماية لأعراضهم وأموالهم، هذه المعارك التى لم تكن تتوقف إلا لكى تستعر من جديد، كذلك كانت المرأة تفخر بكرم رجال قبيلتها وسخائهم.

أما الرثاء فكان هو الفن الذى انطبعت عليه المرأة فى الجاهلية، وكان حظها منه أكثر وأعظم، وذلك لأن رثاءها كان نواحا منها وتعبيرا عن الحزن العظيم على من مات من قبيلتها، وكان النواح من أهم وظائف المرأة فى ذلك العصر، تجعله حافزا للرجال على الثأر لقتيلهم، وهى فى رثائها تبكى على ما تميز به المرثى من

الشجاعة والبطولة ومن الكرم والسخاء، واذا كان المرثى قتيلا جعلت فى رثائها حضا وحفزا للرجال على الانتقام والثأر له، ولم يكن لها فى الثأر دور غير ذلك، وهذا ما جعل المرأة تشتهر بشعر الرثاء.

وقد كان للخنساء القدح المعلَّى فى هذا الفن الشعرى الذى تميزت به المرأة، مما جعلها تفوق كل شواعر العرب فى الجاهلية.

واذا كانت العصور الإسلامية المتتابعة قد شهدت ظهور شواعر كان لهن باع فى فنون مختلفة من الشعر فإن التاريخ لايزال يذكر الخنساء كأعظم شاعرة خلدها شعرها الذى خلدت به أخويها اللذين وقفت شعرها على رثائهما.

ثانيا: تطور شعر الخنساء.

لم يرد فيما رواه الرواة من شعر الخنساء ما يكشف عن بداية شاعريتها، وكل ما روى لها قصائد كاملة جيدة الصياغة، مما يدل على أن هذا الشعر إنما كان فى مرحلة النضوج الفنى لها، ولابد أنه كان للخنساء شعر قبل مقتل اخيها معاوية، فقد كانت عند مقتله فى مرحلة الشباب الناضج، فقد خطبها دريد بن الصمة وهو حليف لأخيها معاوية، ولكن شعرها قبل مقتل معاوية لم يرد منه شىء، وقد كان- كما يقول المؤرخون للأدب- بين البيتين والثلاثة، ولذلك اهمله الرواة، ولم يرووا لها إلا قصائد كاملة بديعة الصياغة فى رثاء أخويها، وعلى ذلك فالشعر الذى نعرفه للخنساء إنما يمثل مرحلة النضج لشاعريتها.

ومما يدل على أن مقتل أخيها معاوية كان بداية الشعر الناضج لها فى قصائد كاملة قولها:

فقد أصبحتُ بعد فتى سليمٍ ∴ أفرّج هَم صدرى بالقريضِ
أسائلُ كلَّ وَالِهَةٍ هَبُولٍ ∴ براها الدهرُ كالعظْم المهيض

وقد كان شعرها قبل الإسلام تعبيرا عن الحياة الجاهلية بما فيها من عادات وتقاليد ومعتقدات- أما بعد إسلامها فقد حدث تغير طفيف فى شعرها فيما يتصل بالعقائد، وفيما اقتبست من معانى القرآن الكريم وعباراته.

ثالثا: شعر الخنساء قبل الإسلام:

شعر الخنساء قبل الإسلام يعبر عن التقاليد الجاهلية ويبرز الفجائع التى ابتلاها بها الدهر والموت، وذلك بمقتل أخويها معاوية وصخر، فهى فى حزن دائم، تشكو غدر الزمان وعدوان الموت، إذ لم تكن تعرف حينذاك أن ذلك إنما هو بقضاء الله وقدره، وليس للدهر أو الزمن دخل فيه، ودون أن تعرف أن الموت مقدر على كل إنسان، وأن لكل إنسان أجلا محددا عند الله، وكل ذلك من نظرات الجاهليين، حتى زهير بن أبى سلمى الذى فاض شعره بالحكمة، فإنه يذكر الموت على أنه يخبط خبط عشواء، يصيب إنسانا فيميته، ويخطىء إنسانا فيهرم.

يقول زهير:

رأيتُ المنايا خَبْطَ عشواءَ مَنْ تُصبْ ∴ تُمتْه ومَنْ تُخطئْ يُعمَّرْ فَيهْرَمِ

***

وفى مثل هذا الاعتقاد تقول الخنساء:

ما للمنايا تغادينا وتطرقُنا ∴ كأننا أبدا نُختَزُّ بالفاس

تعدُو وعلينا فتأبى أن تُزايِلَنا ∴ للخيرِ، فالخيرُ منا رَهْنُ أرماس[1]

(١) رَمَىَ الميت: دفنه: والرَّمْس: تراب القبر.

«الأرماس: جمع رمس وهو القبر، فهى ترى أن الخير قد مات بالنسبة لهم»

وتقول:

وفَجَّعنى ريبُ هذا الزمانِ ∴ به والمصائب قد تفجع

وتقول:

فلم أر مثلَه رُزْءًا لجنٍّ ∴ ولم أر مثله رزءًا لإنسِ
أشدُّ على صروفِ الدهر أيْداً ∴ وأفضلُ فى الخطوب بغير لَبْسِ

«الأيْد: القوة- اللّبس: الخلط»

وتقول:

أرى الدهر يرمى ما تطيُش سهامُه ∴ وليس لمن قد غالَهُ الدهرُ مرجعُ

وتقول:

أرى الدهرَ أفنى معشرى وبنى أبى ∴ فأمسيتُ عَبْرى لا يجفُّ بكائيا
أيا صخرُ هل يُغنِى البكاءُ أو الأسى ∴ على ميّتٍ بالقبرِ أصبح ثاويا

وتقول:

تعرّقَنى الدهر نهساً وحزًّا ∴ وأوجعنى الدهرُ قرعًا وغَمْزا
وأفنى رجالى فبادوا معا ∴ فغودر قلبى بهم مستَقَرًّا
كأنْ لم يكونوا حِمىً يُتَّقى ∴ إذِ الناس من عَزَّ بزّا
وكانوا سراةَ بنى مالكٍ ∴ وزَيْنَ العشيرةِ بذلاً وعِزًّا

«نهسا: نهشا- حزًّا: قطعاً- قرعا: ضربا- مستفَزًّا: مُزعجا- بزَّ: غلب»

وتقول:

لِيَبْكِهِ مَقْتِرٌ افنى حريبتهُ ∴ دَهْرٌ وحَالفهُ بؤسٌ وإقتارُ

«حريبته: ماله- إقتار: فقر- مقتر: فقير»

وتقول:

وأبكى أخاكِ لدهرٍ صارَ مؤتلفاً ∴ والدهرُ ويحكِ ذو فجعٍ وتجليفِ

«تجليف- استئصال واقتلاع»

***

فى هذه الأبيات وأمثالها نرى الخنساء تعتقد أن الأحداث من خير أو شر.

إنما تكون من الدهر، فالدهر هو الذى يفعل بهم ما يلاقون من خير أو شر.

***

ونسوق هنا نموذجا كاملا لقصائد الخنساء فى الجاهلية، وهو قصيدة فى رثاء صخر، ونعرضها مقسمة إلى الأفكار العامة التى تناولتها.

أ- بكاء مستمر لمصيبتها فى صخر: تقول:

قَذًى بعينيكِ أم بالعين عُوَّار ∴ أم اقفرت أنْ خلت من اهلها الدارُ

كأن عينى لذكراه إذا خطرت ∴ فيضٌ يسيلُ على الخَدَّينِ مِدْرَارُ

تبكى لصخرٍ هى العبرَى وقد وِلهتْ ∴ ودونَه من جديد التُّرْبِ استارُ

تبكى خناسُ فما تنفكُّ ما عَمَرَتْ ∴ لها عليه رنين وهى مفتارُ

تبكى خناسُ على صخرٍ وحُقَّ لها ∴ إذ رابها الدهرُ إن الدهرَ ضرَّارُ

لابدَّ من ميتَةٍ فى صرفِها عبرٌ ∴ والدهرُ فى صرفِه حولٌ واطوارُ

«مفتار: شديدة الفتور والضعف- صرف الدهر: مصائبه- حول: قوة»

ب- سيادة صخر وشجاعته وبطولته: تقول:

قد كان فيكم ابو عمرو يسودكُمُ ∴ نعم المعَممُ للداعين نَصَّارُ

صُلْبُ النحيزةِ وهابٌ إذا منعُوا ∴ وفى الحروبِ جرىءُ الصدرِ مِهْصَارُ

يا صخرُ ورَّاد ماءٍ قد تناذرَهُ ∴ أهل الموارِدِ ما فى وردِهِ عارُ

مَشْىَ السَّبَنْتَى إلى هيجاءَ مُعضِلة ∴ له سلاحان: أنيابٌ وأظفارُ

أبو عمرو: كنية صخر باسم أبيه كما يحدث فى حياتنا الحاضرة- الداعين: المستغيثين- النحيزة: الطبيعة- مهصار: صيغة مبالغة من الهصر وهو الكسر، أى انه كاسر للأعداء- تناذره: تبادل الإنذار- أهل الموارد: طُلَّاب موارد الماء- ما فى ورده عارٌ: اى ان صخرا يرده ورود منتصر قادر- السبنتى: النمر»

جـ- مصيبتها فى صخر أشد من مصيبة الناقة فى ولدها: تقول:

وما عجولٌ على بوٍّ تطيفُ به ∴ لها حنينان إعلانٌ وإسرارُ

ترتع ما رَتَعَتْ حتى إذا ادَّكَرَتْ ∴ فإنما هى إقبال وإدبارُ

لا تسمنُ الدهرَ فى أرضٍ وإن رتعت ∴ فإنما هى تَحْنَانٌ وتَسْجارُ

يومًا بأوجَدَ منى يومَ فارقنى ∴ صخرٌ وللدهرِ إحلاءٌ وإمرارُ

«عجول: ناقة مات ولدها- البوُّ: ولد الناقة- تسجار: اشتعال وإحماء لنار الحزن- أوجد: أشد وجدا- إحلاء وإمرار: إعطاء الحلو والمر».

د- عدد إلى سيادة صخر وشجاعة وكرمه وجماله:

وإن صخراً لوالينا وسيدُنا ∴ وإن صخرًا إذا نشتو لنَحّارُ
وإن صخرًا لمقدامٌ إذا ركبوا ∴ وإن صخرًا إذا جاعوا لعَقّارُ
وإن صخرًا لتأتمُّ الهداةُ به ∴ كأنه عَلَمٌ فى راسه نارُ
جَلد جميلُ المحيّا كامل ورعٌ ∴ وللحروبِ غداةَ الرّوعِ مِسعارُ
حمّالُ الويةٍ هَبّاطُ أوديةٍ ∴ شهّادُ اندية للجيشِ جرّارُ

«نشتو: ندخل فى فصل الشتاء، وهو فصل جوع فى البادية- نحار: كثير نحر الأغنام لإطعامهم- وكذلك كلمة عقّار- العلم: الجبل- مسعار: كثير إسعار الحرب وإشعالها».

هـ- أثر خبر مقتله عليها: تقول:

فقلتُ لما رايتُ الدهرَ ليس له ∴ مُعاتبٌ، وَحدَهُ يُسدِى ونيّارُ
لقد نَعَى ابن نهيكٍ لى اخا ثقةٍ ∴ كانتْ تُرَجّمُ عنه قَبْلُ اخبارُ
فَبِتُّ ساهرةً للنجمِ ارقُبُه ∴ حتى اتى دونَ غَوْرِ النجمِ أستارُ

«يسدى: يصنع سدى الثوب وهو خيوطه الطويلة - النيار: الذى يرسم الخطوط والصور فى الثوب، تقصد أن الدهر وحده يصنع بهم كل شىء- ترجم: تشاع».

و- من أخلاقه العفة والكرم: تقول:

لم تَرَاهُ جارةٌ يمشى بساحتِها ∴ لريبةٍ حينَ يُخْلى بيتَه الجارُ
ولا تراه ومـا فى البيت يأكلُهُ ∴ لكنهُ بارز بالصحين مِهْمَارُ
ومُطعِمُ القومِ شحماً عند مَسْغَبِهم ∴ وفى الجدوبِ كريمُ الجدِّ ميسارُ

«ترأه: تراه- ما فى البيت يأكله: لا يأكل طعامه فى داخل البيت- مهمار: صيغة مبالغة من الفعل همر أى صب بكثرة، أى أنه بكثر تقديم الطعام فى صحن داره: مسغبهم: جوعهم- الجدوب: الجدب- ميسار: كثير التيسير على الناس».

ز- هو الذى استخلصته لنفسها من كل ذويها: تقول:

قد كان خالصتى من كلِّ ذى نسبٍ ∴ فقد أُصيبَ فما للعيشِ أوطارُ

«اوطار: جمع وطر وهو المطلب»

ح- عود إلى وصف صخر فى هيئته وأصالته وكرمه: تقول:

مثلُ الرُّدَيْنىِّ لم تنفدْ شبيَبتُه ∴ كأنَّهُ تحتَ طَىِّ البُرْدِ إسْوَارُ

جَهْمُ المحيا، تضىءُ الليلَ صورتُه ∴ اباؤه من طوالِ السَّمكِ أحرارُ

مُوَرَّثُ المجدِ ميمونٌ نَقيبَتُهُ ∴ ضخمُ الدَّسيعَة فى العَزَّاء مغوارُ

فرعٌ لفرعٍ كريمٍ غيرُ مؤتشبٍ ∴ جلدُ المريرةِ عند الجمعِ فَخَّارُ

فى جوفِ لحدٍ مقيمٌ قد تَضمَّنَه ∴ من رَمْسِه مُقْمَطِرَّاتٌ واحجارُ

طلقُ اليدينِ لفعل الخيرِ ذو فَجَرٍ ∴ ضَخم الدسيعةِ بالخيراتِ أمَّارُ

ليبكِه مقترٌ افنى حَرِيبَتهُ ∴ دهر وحالفه بؤسٌ وإقتارُ

ورُفْقَة حَارَ حاريهم بَمْهلكة ∴ كأَنَّ ظلمتَها فى الطَّخيَةِ القارُ

لا يمنعُ القومَ إن سالوه خلعته ∴ ولا يجاوِزُهُ بالليلِ مرَّارُ

«الردينى: الرمح- البُرد: الثوب الذى يلتحف به- الإسوار: قائد الجيش عند الفرس، والجميع أساورة- جهم: عابس، وكانوا يعدون العبوس من صفات السادة- السمك: الارتفاع- النقيبة: الطبيعة- الدسيعة: الجفنة الواسعة، والجفنة

هى القصعة- العزَّاء: المعركة الشديدة- مؤتشب: مختلط- مقمطرات: صخور كبيرة- ذو فجر: يتفجر عطاؤه- مقتر: فقير، والإقتار: الفقر- حريبته: ماله- الطخية: شدة الظلام- سالوه: سألوه- خلعته: ثوبه- لايجاوزه مرار: لا يترك احدا من المارين بالصحراء دون أن يضيفه».

خصائص شعر الخنساء فى هذه القصيدة:

١- كانت الخنساء تمتلك ثروة لغوية تمكنها من تكرار المعانى بألفاظ مختلفة، كما يظهر من وصفها لصخر بالكرم والسخاء، وفى وصفها لأصالته وشرفه وعلو منزلته، وفى وصفها له بالشجاعة، وفى وصفها لهيئته، وبهذه الثروة اللغوية كانت قادرة على صوغ المعنى فى أكثر من عبارة، مما يدل على عنايتها بالألفاظ.

٢- المعانى التى عرضتها الخنساء مكررة فى غير ترتيب، وذلك يتفق مع طبيعة الشعر الجاهلى كله، ومعظم الشعر فى العصور الإسلامية حتى مطلع العصر الحديث حيث ظهر فى الأدب ونقده مبدأ وحدة القصيدة.

٣- القصيدة تعبر عن طبيعة الحياة فى العصر الجاهلى، من كثرة الحروب ومن القحط الذى يصيب البوادى ولاسيما فى فصل الشتاء، وفى هذا الفصل يشتد الجوع بالفقراء ويكونون فى أشد الحاجة إلى من يطعمهم، وهنا يبدو أثر الكرم الذى تمدَّح به العرب.

وهذا الجفاف والجوع كان يدعو إلى إغارة بعض القبائل على بعض لاغتصاب ما لديهم من الطعام أو الأنعام او المال فكثرت الحروب، وكثرة الحروب تحتاج إلى الشجاعة والبطولة، فكان فخرهم بذلك، كما كان من مفاخرهم شرف الأصل، بل إن الصفات الجسدية كان لها شأنها فى فخرهم كجمال الوجه مع جهامته.

وكذلك ما كان عليه العرب فى الجاهلية من النواح على الموتى ولاسيما على هؤلاء السادة والابطال والكرماء، مثل صخر.

٤- من عدم الترتيب فى المعانى ذكرها وصف قبر صخر فى البيت الحادى والثلاثين بين أوصاف صخر.

رابعا: شعرها فى الإسلام

لم يختلف شعر الخنساء بعد الإسلام كثيرا عن شعرها فى الجاهلية، ولم يكن الاختلاف إلا فيما يتصل بالمعتقدات الإسلامية، أو الاقتباس من معانى القرآن الكريم وألفاظه، وذلك لأن من طبيعة العرب المحافظة على القديم والتمسك به والحرص عليه ما لم يتعارض مع تعاليم الإسلام.

والخنساء بطبيعتها- كما عرفنا فى شخصيتها- شديدة المحافظة على العادات والتقاليد الجاهلية، ويتجلى ذلك بوضوح فى حرصها على لبس صدار الشعر، وعلى حلق الرأس وتعليق نعلى صخر فى خمارها، حتى نهاها عن ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين رآها بتلك الصورة فى الحرم الملكى، ووعظها، فقالت: إنى رزئت رزءا لم يرزأ أحد مثله» فقال لها: «إن فى الناس من هم أعظم مرزئه منك، وإن الإسلام قد غطى على ما كان قبله، وإنه لا يحل لطم وجهك وكشف رأسك» فكفت عن ذلك، ثم قالت بعد ذلك:

فلا وأبيك ما سليت صدرى ∴ بفاحشة اتيت ولا عقوق

ولكنى وجدت الصبر خيرا ∴ من النعلين والرأس الحليق

هذه المحافظة التى تميز بها العرب عموما والخنساء خاصة - هى التى جعلت شعر المخضرمين فى صدر الإسلام لا يختلف كثيرا عن شعرهم فى الجاهلية إلا فيما يتصل بالعقائد، ويتمثل ذلك فى الأبيات التالية للخنساء.

تقول:

مـالذِا الموت لا يزالُ مُـخيـفـا ∴ كلَّ يوم ينـالُ منـا شـــريـفـــا
مـولعـاً بالسَّراة منـا فـمـا يأ ∴ خــذُ إلا المهــذَّبَ الغِطريفـــا
فَلَوَ انَّ المنونَ تعـــدلُ فـــينـا ∴ فـتنـالُ الشــريفَ والمشــروفـا
كان فى الحقِّ أن يعودَ لنا الموتُ ∴ والاَّ نَسُـــومَـــهُ تســـويـفـــا
أيها الموتُ لو تجافيتَ عن صخرٍ ∴ لألفــيـتَـه نقـيّـا عـفـيـفـا
عاش خمسين حجةً ينكرُ المنـ ∴ ـكر فـينا ويبـذلُ المعــروفـا
رحــمــةُ اللهِ والســلامُ عليـه ∴ وسـقى قبـره الربيـعُ خـريفـا

فهى فى هذه الأبيات تعجب للموت الذى يتمادى فى تخويفهم ونيل الشرفاء الشجعان منهم دون أن يعدل بين الأشراف ومن دونهم، وهذه المعانى من خصائص الشعر الجاهلى، ثم تصف صخرا بالنقاء والعفة، وأنه فى عمره الذى امتد خمسين عاما كان ينكر المنكر ويبذل المعروف، وهذا من تعاليم الإسلام، ثم تدعو له بالرحمة من الله، وهذا يدل على ثقتها فى الله وتمكن الاعتقاد برحمته فى نفسها حتى دعته بأن يرحم صخرا ولو أنه مات مشركا.

ومن تأثير العقيدة الإسلامية وتعاليم الإسلام فى نفسها قولها فى رثاء صخر:

يا عينُ جودى بدمعٍ منكِ مهراقِ ∴ إذا هَدا النـاسُ أوهَمُــوا بإطـراقِ
إنى تذكرنى صخراً إذا سَجَعتْ ∴ على الغصون هتوفٌ ذات أطواقِ
وكل عَـبـرى تبـيتُ الليل سـاهرةً ∴ تبكى بكاء حزين القلب مشتاقِ
لا تكذبَنَّ فـإن الموتَ مـخــتــرمٌ ∴ كلَّ البـريةِ غيـرَ الواحـدِ البـاقى

«هدا: هدأ- هتوف: حمامة»

وقالت:

ضاقت بى الأرضُ و انَقضَتْ مخارِمها ∴ حتى تخاشعت الأعلامُ والبيدُ
وقائلين تعزَّىْ عنَ تَذكَرهِ ∴ بالصبر ليس لأمرِ الله مردودُ

«الأعلام: الجبال»

وقالت فى قصيدة فى رثاء معاوية:

فأقسمتُ لاينفكُ دمعى وعَولَتى ∴ عليكَ بحزنٍ ما دعا اللهَ داعيه

وقالت فى رثاء صخر:

وما يبكين مثلَ اخى ولكن ∴ أُعَزِّى النفسَ عنه بالتأسّى
فلا واللّهِ لا انساكَ حتى ∴ افارق مهجتى ويُشقَّ رَمْسى

«رمسى: قبرى»

ونورد هنا نموذجا كاملا من قصائدها الإسلامية وقد قالت هذه القصيدة فى رثاء أخيها معاوية:

أ- أثر موت معاوية فى نفسها فتقول :

الاَ ما لِعَيْنِكَ أمْ مالها ∴ لقد أخضَل الدمعُ سِرْبالهاَ
أَبعدَ ابن عمرو مِنَ ال الشَّريد ∴ حَلَّتْ به الأرضُ اثقالهَا
فآليت آسَى على هالكٍ ∴ واسألُ باكيةً: مالها؟

«السربال: القميص- حلت: الفعل حلَّى- من التحلية- أثقالها: موتاها، وهى

مقتبسة من قوله تعالى: «وأخرجت الأرض أثقالها» سورة «الزلزلة الآية ٢»- آليت آسى: أقسمت لا أشعر بالأسى على تقدير النفى».

ب- من صفات معاوية فتقول:

لعَمْرُ أبيكَ لنِعْمَ الفتى .·. تَحُش بهِ الحربُ أجْذالَها

حديدُ السِّنانِ، ذليقُ اللسان .·. يُجازِى المُقارِضَ أمثالها

جـ- «تحش: تضرم- الأجذال: مع جذل وهو أصل الشجرة- حديد السنان: رماحه حادة- ذليق اللسان: طلق يرد على من يهاجيه بأضعاف ما يقول».

جـ- عود إلى أثر موته فى نفسها فتقول:

همَمْت بنفسىِ كلَّ الهُمُوم .·. فأَوْلَى لنفسىَ أوْلى لها

سأحملُ نفسى على آلةٍ .·. فإمَّا عليها وإمَّا لها

فإنْ تصبر النفسُ تَلْقَ السرورَ .·. وإن تجزعِ النفسُ أشقَى لها

«هممت بنفسى كل الهموم: هممت أن أفعل بنفسى وأرتكب فيها أحداثا كثيرة- أولى لنفسى، أولى لها: وعيد لنفسها بالهلاك، وهذا التعبير متأثر بقوله تعالى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ * ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ «سورة القيامة الآيتان ٣٤/٣٥»- آلة: خطة»

د- بطولة معاوية فتقول:

نُهينُ النفوسَ وهَوْنُ النفو .·. سِ يومَ الكريهة أبْقَى لها

ونَعلمُ أنَّ منايا الرجا .·. لِ بالغةٌ حيثُ يَحْلى لَها

لِتَجرِ المنيةُ بعدَ الفتى الْـ .·. مُغادرِ بالمَحْوِ أذلالها

وَرِجـراحــةٍ فـوقَـهـا بِيـضُـهـا ∴ عليــهــا المُضَــاعفُ زُفْنًا لـهــا
كَكرْفِـئَــة الغَــيث ذات الصَّـبـيـ ∴ ـرِ تَرْمِي السحـابَ ويُرْمَى لهـا
وخَـــيلٍ تَكَدَّسُ بالدار عـــيـــ ∴ ـنَ نازلت بالســيفِ أبطالَهــا

«الكريهة: الحرب- حيث يحلى لها: حيث يختار المرء لنفسه، موتا على فراشه أو فى ميدان الحرب- الفتى المغاور: تقصد معاوية- إذلالها: مسالكها، وتقصد أنه لا يعنيها بعد مقتل معاوية أن تسير المنايا فى أى طريق- رجراجة: كتيبة كبيرة تضطرب فى سيرها لكثرتها- بيضها: سيوفها- المضاعف: الدروع»

وتقصد فى الأبيات الثلاثة الأولى بيان شرف الموت فى الحرب وأنه لا يعنيها على أى نحو يموت الناس بعد معاوية، والأبيات الثلاثة الأخيرة تصف فيها ضخامة جيش الأعداء وكثرة سلاحه ولكن معاوية لم يتهيبه بل نازل أبطاله.

هـ- فصاحة معاوية فتقول:

وقـافـيــةٍ مـثل حـدِّ السنا ∴ نِ تبـقـى ويذهبُ من قـالَهـا
تَـقُـــدُّ الذؤابـةَ مـن يَـذْبُلٍ ∴ أَبَتْ أنْ تُفـارِقَ أَوْعَــالَهــا
نطقت - ابنَ عمرو- فَسَهَّلتَـها ∴ ولم ينطقِ الناسُ أمـثـالَهـا

«تقد: تقطع- الذؤابة: القمة- يذبل: اسم جبل- الأوعال: جمع وعل، وهو تيس الجبل».

تصف فصاحة معاوية، وأن شعره حاد صارم يعجز الشعراء أن يقولوا مثله

و- عود الى بطولة معاوية فتقول:

فـــإنْ تَـكُ مُـــرَّةُ أَوْدَتْ بـه ∴ فـقـد كـان يُكْثِـرُ تَقْـتَـالَهـا

«مرة: القبيلة التى قتلت معاوية»

ز- عود الى أثر مقتله فى الطبيعة فتقول:

فَخرَّ الشوامخُ من قتلِه ∴ وزُلْزِلتِ الأرضُ زِلزالَها
وزالَ الكواكب من فقدِهِ ∴ وجُلِّلَتِ الشمس اجلالَها

«الشوامخ: الجبال الشاهقة- جللت الشمس أجلالها: أظلمت كأنها لبست الجُلَّ»

جـ- عود الى بطولة معاوية فتقول:

وداهيةٍ جَرَّهَا جارمٌ ∴ تبينُ الحواضنَ احمالهَا
كفاها ابْنُ عمروٍ ولم يستعِنْ ∴ ولو كان غيرُك ادنى لها
وليسَ بأوْلى ولكنه ∴ سيكفى العشيرةَ ما غالَها
بمعتركٍ ضيِّقٍ بينَه ∴ تجرّ المنيةُ أذيالها
تُطاعِنُها فإذا ادبَرَتْ ∴ بلَّلتَ من الدمَ اكفالَها
وبيضٍ مَنَعْتَ غداة الصيا ∴ ح تكشفُ للروعِ اذيالها
ومعملةٍ سقتَها قاعدًا ∴ فأعلمتَ بالسيفِ اغْفَالَها
وناجيةٍ كأتانِ الثَّميل ∴ غادرتَ بالخل اوْصَالَها
إلى ملك لا إلى سُوقةٍ ∴ وذلك ما كان أكْلاً لَها
وتمنحُ خيلَكَ أرض العدا ∴ وتنبذُ بالغزو اطفالهَا
ونَوحٍ بعثتَ كمثلِ الأرا ∴ خِ آنستِ العين اشبالَهَا

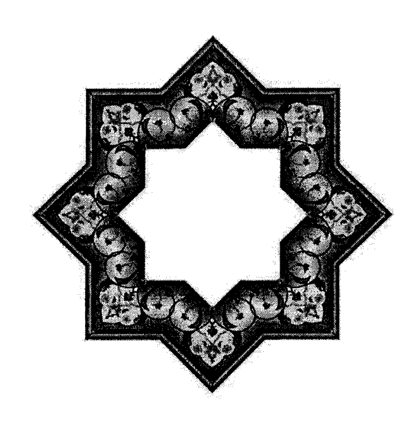


تبين الحواضن أحمالها: تسقط أحمال النساء الحوامل لشدة هولها- الأكفال: جمع كَفَل، وهو العجُز- بيض: تقصد نساء القبيلة المعتدى عليها-

معملة: التمثيل:

فى هذه الأبيات تريد الخنساء أن تقول:

كم من عدوان شنه مجرمون على قبيلتهم بلغ من خطورته أن تسقط الأجنة من بطون الحوامل قد واجهه معاوية غير مستعين بأحد، ولو أنه لم يكن هو أولى الناس بمواجهته، ولكن حرص على أمن عشيرته من كل غائلة، فقاتل الموت حتى أدبر عنه فلاحقه بطعن بسيل الدم من أعجازه- وحمى نساء القبيلة اللاتى روّعهن العدوان، وكم ساق من حملات أرهقت دوابها إلى الملوك يتخيرهم دون السوقة لعلو همته، ليكون أهنأ كلأ ويبيح أرض الأعداء لخيل أصحابه.



تعليق على هذه القصيدة

● يبدو فى هذه القصيدة من خصائص شعر الخنساء ما رأيناه فى قصيدتها التى عرضناها من شعرها قبل الإسلام.

١- فهى تملك ثروة لغوية تمكنها من تكرير المعانى بالفاظ مغايرة، فهى تخرج من المعنى إلى معنى آخر ثم تعود إلى المعنى السابق بألفاظ أخرى، فهى تتحدث عن أثر موت معاوية فى نفسها، ثم تذكر بعض صفات معاوية من البطولة والفصاحة، ثم تعود إلى أثر موته فى نفسها ثم تعود إلى بطولته وفصاحته ثم تذكر أثر موته فى الكون وفى هذا المعنى مبالغة.

وفى تكرير هذه المعانى دون ترتيب ما قلناه من أن هذه ظاهرة أدبية قديمة ظلت سائدة حتى العصر الحديث إذ ظهرت فيه فكرة وحدة القصيدة

٢- فى هذه القصيدة من ظواهر الحياة الجاهلية تلك الغارات التى تشنها القبائل بعضها على بعض عدوانا، ورد المعتدى عليه، وتبرز الخنساء بطولة معاوية فى كلتا الحالين حال الإغارة وحال رد الإغارة، وإسراعه فى حماية قبيلته ولو أنه لم يكن المسئول عن ذلك وتصف فزع النساء وصياحهن وخروجهن عاريات السيقان هربا من المعتدين وحماية معاوية لهن، ومن هذه الظواهر أن الموت هو الذى يختار المكان الذى يأتى فيه إلى الإنسان

● وفى القصيدة من أثر الإسلام فى فن الخنساء

١- اقتباس بعض الألفاظ والعبارات من القرآن الكريم ومن ذلك كلمة «أثقال» بمعنى الموتى المدفونين فى الأرض، وعبارة «زلزلت الارض زلزالها» فهما مقتبستان من الآيتين فى أول سورة الزلزلة

وعبارة «أولى لنفسى اولى لها» مأخوذة من قوله تعالى «أولى لك فأولى. ثم أولى لك فأولى» سورة القيامة الآيتان ٣٤/٣٥» وقولها «تبين الحواضن أحمالها» متأثرة بقوله تعالى فى وصف أهوال القيامة «يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها» سورة الحج: الآية ٢

– من تأثرها بتعاليم الإسلام وهديه تفضيلها الصبر على الجزع وذكرها لجزاء الصبر وهو السرور ونتيجة الجزع وهى الشقاء، وهى فى ذلك متأثرة بقوله تعالى «وبشر الصابرين» البقرة الآية ١٥٥» وقوله تعالى «إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب» سورة الزمر الآية ١٠»

وغير ذلك من الآيات التى تحث على الصبر وتبين عظم جزائه

ومن تأثرها بتعاليم الإسلام أيضا نظرتها إلى فضل موت المرء فى الحرب على موته فى فراشه فى قولها «وهوان النفوس يوم الكريهة أبقى لها» وكذلك وصيتها لأبنائها ليلة موقعة القادسية فهى ذلك متأثرة بدعوة الإسلام إلى الجهاد وإلى بقاء الشهداء أحياء عند ربهم فى مثل قوله تعالى «ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون» سورة البقرة: الآية ١٥٤» وقوله تعالى.. ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون» «سورة آل عمران: الآية ١٦٩»

خامسا: تعليق عام على شاعرية الخنساء

من النماذج التى عرضناها من شعر الخنساء- سواء فى أبيات أو مقاطع أو قصائد كاملة نستطيع أن نستخلص الخصائص الفنية لشعرها.

١- المعانى والأفكار:

هى كغيرها من شعراء العصر الجاهلى فى معظم أشعارهم- تعبر عن أفكار

ومعان واضحة بسيطة لا عمق فيها ولا غموض، وهى عند الخنساء أفكار ومعان محدودة تدور حولها فى كل قصائدها ولذلك فإنها كثيرا ما تكرر أفكارها ومعانيها حتى فى القصيدة الواحدة.

وفى تكرارها للمعانى فى القصيدة الواحدة لا تجمع كل أجزاء الفكرة فى موضع واحد من القصيدة بل نجدها تتحدث عن الفكرة الواحدة أو المعنى الواحد فى أجزاء متفرقة من القصيدة فلا ترتيب لأفكار القصيدة، بل هى معان متداخلة ولعل اقتصار فنها على الرثاء كان من بواعث هذا التكرار، كما أن طبيعة فن الرثاء فى العصر الجاهلى يتضمن صفات المرثى التى يعتز بها الجاهليون وهى الشجاعة والبطولة والشرف والسيادة والكرم من دواعى هذا التكرار.

وهى فى تكريرها للمعانى تستخدم ألفاظًا مغايرة مما يدل على اتساع ثروتها اللغوية، ونادرا ما تكرر المعنى بنفس الالفاظ كقولها فى القصيدة التى عرضناها كنموذج لشعرها قبل الإسلام وهى فى رثاء صخر.

مُوَرِّثُ المجدِ ميمونٌ نقيبتُهُ ∴ ضخْمُ الدسيعةِ فى العزّاء مغوار

وتقول فى نفس القصيدة بعد أبيات من هذا البيت:

طلقُ اليدين لفعلِ الخيرِ ذو فجرٍ ∴ ضخم الدسيعة بالخيرات أمّار

«والدسيعة: هى الجفنة أو القصعة التى يقدم فيها الطعام وضخامتها دليل على كثرة الآكلين فهى وصف له بالكرم»

٢- موسيقى الألفاظ

كما كان للثروة اللغوية عند الخنساء أثرها فى تكرير المعانى بألفاظ مختلفة كان لهذه الثروة كذلك أثرها فى تخير الألفاظ ذات الجرس والإيقاع الذى يهز المشاعر لاسيما إذا استخدمتها فيما كان شائعا فى شعرها من حسن التقسيم وتوازن الكلمات وأجزاء البيت.

ومن موسيقى الشعر عند الخنساء التصريع وهو اشتراك شطرى البيت فى القافية وغالبا ما يكون فى مطالع القصائد، وهو كذلك فى مطالع كل القصائد عندها ومن ذلك قولها:

تعرّقنى الدهر نَهْساً وحزَّاً ∴ وأوجعنى الدهرُ قرعًا وغمزًا

وقولها:

مالذا الموت لايزال مخيفا ∴ كل يوم ينال منا شريفا

وقولها:

يا عين جودى بدمع منك ∴ اذا هدا الناس أو هموا بإطراق

وقولها:

هريقى من دموعك أو افيقى ∴ وصبرا إن أطقت ولن تطيقى

إلى غير ذلك من كل المطالع فى قصائدها

ونجدها أحيانا تأتى بهذا التصريع فى بيت داخل القصيدة ففى رثاء زوجها الثانى مرداس بن أبى عامر بعد عدة أبيات من القصيدة جاءت بالبيت التالى:

لقد خار مرداسا على الناس قاتلهْ ∴ ولو عاده كنَّاتهُ وحلائلهْ

وحسن التقسيم شائع فى شعرها كقولها فى صخر

حمالُ الويةِ هياطُ أوديةِ ∴ شهّاد أندية للجيش جرّار

وقولها فيه:

جَمٌّ فواضله تَنْمَى أناملهُ ∴ كالبدرِ يجلو ولا يخفى على السارى

ردّادُ عاريةٍ فكاكُ عانيةٍ ∴ كضيغم[1] باسلٍ للقرنِ هصّارِ

جَوّابُ أوديةٍ حمالُ الويةِ ∴ سمحُ اليدين جوادٌ غيرُ مقتارِ

---

(١) الطيغم: اسم من أسماء الأسد الهصور.

وقولها فيه:

نحارُ راغيةٍ قتالُ طاغيةٍ ∴ فكّاكُ عانيةٍ للعظم جبّارُ

ومن الموسيقى التى تهز المشاعر قصائدها التى نظمت على «بحر المتقارب» وهذا البحر من أوزان الشعر ذو موسيقى رائعة خلابة لذلك كثر اختيار الأغانى من قصائد هذا الوزن الشعرى ومنها تلك القصيدة التى غناها أمير الغناء فى العصر العباسى «إبراهيم الموصلى» كما ذكر ذلك صاحب الأغانى.

وتقول فيها الخنساء

أعينىَّ جُودا ولا تجمدا ∴ ألا تبكيان لصخر الندى

الا تبكيان الجرىء الجميلَ ∴ الا تبكيانِ الفتى السيّدا ؟

طويلُ النجاد رفيعُ العمادِ ∴ ساد عشيرته امْرَدا

إذا القومُ مدُّوا بأيديهمُ ∴ إلى المجد مدُّوا إليه يدا

فنال الذى فوق أيديهم ∴ من المجد ثم مضى مُصْعِدا

يكلّفه القومُ ما عَالَهُمْ ∴ وإن كان أصغرهم مولدا

ترى المجد يهوى إلى بيته ∴ يرى أفضل الكسب أن يحمدا

وإن ذكر المجدُ الفيته ∴ تأزَّر بالمجد ثم ارتدى

وعلى هذا الوزن ايضا قولها

تعرقنى الدهر نهسا وحزا ∴ وأوجعنى الدهر قرعا وغمزا

وفى هذا البيت من الموسيقى إلى جانب الوزن توازن الكلمات بين شطرى البيت

فكل كلمة توازن نظيرتها فى ترتيب كلمات الشطر الآخر.

وخلاصة القول أن الخنساء كانت تهتم باختيار الألفاظ ذات الإيقاع والجرس الموسيقى إلى جانب توازن الكلمات ونظمها على وزن شعرى أخّاذ مثل بحر المتقارب.

٣- التصوير:

تعتمد الخنساء بصفة خاصة فى تصويرها على إيحاء الألفاظ أما التصوير بغير إيحاء الألفاظ فمعظمه كنايات وتشبيهات، والكنايات أكثرها ومنها فى النماذج التى ذكرناها قولها «رداد عارية» كناية عن أمانته «وفكاك عانية» كناية عن شجاعته وبطولته فى تخليص الأسيرات من الأسر وقولها «للقرن هصار» كناية عن قوته، كذلك قولها: «قتال طاغية» فهو كناية عن قوته وشرفه فى تخليص الناس من طغيان هذا الطاغية وقولها «جواب أودية» كناية عن شجاعته التى تجعله لا يستقر فى دياره «حمال ألوية» كناية عن سيادته وقيادته الجيوش.

و«ضخم الدسيعة» و«نحار راغية» كنايتان عن الكرم وغير ذلك كثير يشيع فى شعرها ومن التشبيهات فى شعرها قولها «كالبدر يجلو ولا يخفى على السارى» وقولها كضغيم باسل وقولها:

مشى السبنتى إلى هيجاء معضلة ∴ له سلاحان أنياب وأظفار

وفى قولها له سلاحان أنياب وأظفار ترشيح وتقوية للتشبيه، ومن التشبيهات التى اتخذت أمثلة فى علم البلاغة وكتبها قولها:

وإن صخرا لتأتم الهداة به ∴ كأنه علم فى رأسه نار

ومن التشبيه التمثيلى الذى يرسم صورة حية متحركة قولها

وما عجولٌ على بوّتطيف به ∴ لها حنينان إعلان وإسرار

ترتع ما رتعت حتى إذا ادّكرت ∴ فإنما هى إقبال وإدبار

لا تسمن الدهر فى أرض وإن رتعت ∴ فـإنما هـى تحنـان وتسـجـار
يومـاً بأوجـد منـى يوم فـارقنـى ∴ صـخـر وللـدهـر إحـلاء وإمـرار

فهى تشبه نفسها بهذه الناقة التى أعجلها الموت بفقد ولدها، فهى تطوف به فى حنين يعلو صوته حينا وينخفض حينا، فإذا رتعت فى مرعى طيب فإنها تذكر ولدها فتأخذ فى حركة مجنونة بين الإقبال والإدبار، مهما يكن خصب مرعاها ومهما ترتع فى هذا المرعى فإنها لا تسمن أبدا للحنين الملتهب فى قلبها على وليدها وهذه هى صورة الخنساء بعد فقدها لصخر.

ومن أجزاء الصورة قولها «فإنما هى إقبال وإدبار» كأن الناقة هى نفس الإقبال ونفس الإدبار فالرائى لا يرى ناقة وإنما يرى إقبالا وإدبارا وذلك لسرعة حركتها الجنونية وكذلك قولها «فإنما هى تحنان وتسجار» كأنها هى نفسها الحنين والتهاب العاطفة، وقولها «وللدهر إحلاء وإمرار» تصور الدهر إنسانا يصنع الشراب الحلو والشراب المر وهى من الصور الاستعارية.

ومثل هذه الاستعارة قولها

واذا ذُكِـرَ المجـدُ الفـيـتـه ∴ تـأزر بـالمجـد ثـم ارتـدى

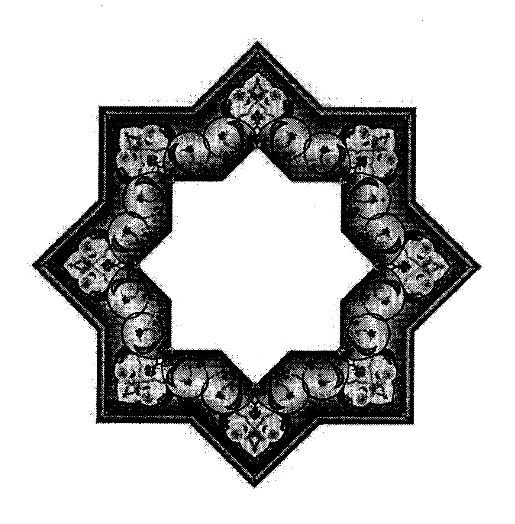
فهى تصور المجد ثيابا تلبس فاتخذه صخر إزارا ورداء

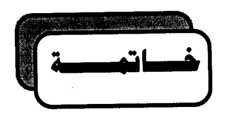
وهذه الصورة الشعرية قليلة فى شعرها ومنها أيضا قولها

لقد صوت الداعى بفقد أخى الندى ∴ نداء لعمـرى لا أبالك يُسْمَعُ
فقمتُ وقد كادت- لروعة هلكه ∴ وفَزعتِه- نفسى من الحزن تتبع
إليـه كـأنى- حـوبةً وتخشـعًا- ∴ أخو الخَمر يسمو تارة ثم يُصرع



وهذه الأبيات تصور موقفا فيه أصوات وحركات، وتعبيراته مترابطة يعتمد بعضها على بعض، فقيامها كان نتيجة لسماعها النداء. وفى البيت الثالث كلمة «إليه» متعلقة بكلمة قمت فى البيت الذى قبله، وهكذا تبدو العبارة متماسكة فى رسم الصورة، ثم تصور نفسها فى اضطراب حركتها بسبب الذهول من الفزع الذى أصابها كأنها أحد السكارى لا يكاد يقف حتى يقع صريعا للخمر.





خاتمة

هذه هى الخنساء كما رآها نقاد الأدب ومؤرخوه قديما، وكما نراها نحن الآن، فقد فضلها القدماء على كل شواعر العرب فى الجاهلية، بل رويت روايات تفضلها على بعض كبار الشعراء فى العصر الإسلامى كحسان بن ثابت وجرير، وسواء صحت هذه الروايات أو لم تصح فلا شك أن الخنساء استحقت بجدارة أن توصف بأنها أميرة شواعر العرب فى كل العصور، فبالرغم من ظهور شاعرات فى مختلف العصور الإسلامية تنوعت فنون شعرهن، وكذلك فى العصر الحديث ظهرت شاعرات حلقن بشعرهن فى سماء معظم فنون الشعر، فإن واحدة منهن لم تظفر بما ظفرت به الخنساء من تقدير المؤرخين والنقاد.

ومن تتبعنا لحياة الخنساء رأينا اعتزازها بالحرية الشخصية، والشجاعة فى إعلان الرأى- على غير عادة الجاهليات، كما ظهر ذلك فى موقفها من خِطْبة سيد بن جشم وفارسها وأثرى أثريائها، وهو فى نفس الوقت حليف قومها واخيها معاوية، ذلك هو «دريد بن الصمة» الذى رفضت خطبته لها.

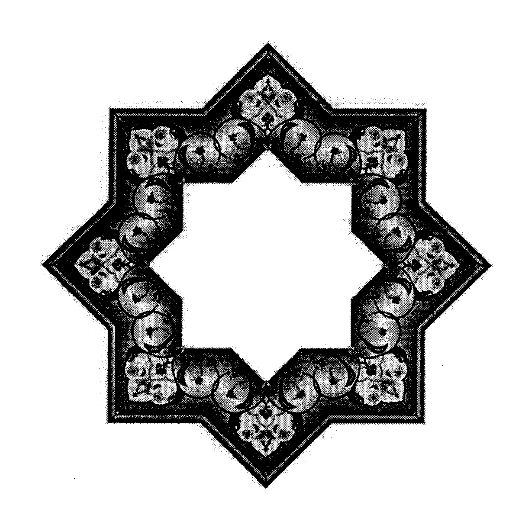
كما رأينا - من اعتزازها بالحرية الشخصية والشجاعة فى اتخاذ المواقف- أنها لم تتدخل فى حياة أولادها، ولا فى تفكيرهم واختياراتهم، إلا فى موقف واحد استحقت به أن تكون مثلا أعلى للأم التى تدفع أبناءها إلى البطولات والاستشهاد فى سبيل الله وفى سبل إعلاء كلمة الله ونشر دينه وفضائله فى العالمين، وذلك فى وصيتها لهم ليلة موقعة القادسية الخالدة فى تاريخ الإسلام، ثم فرحها باستشهادهم وظفرهم برضوان الله وجناته، وتدعو لنفسها أن يجمعها الله بهم فى مستقر رحمته.



ولعل هذا التغير فى سلوكها مع أولادها راجع الى ما عرفت من مصير الشهداء وجزائهم عند الله، على غير ما كانت تعرف عن القتيل فى الجاهلية، فحبها لأولادها هو الذى دفعها إلى هذا الموقف.

هذه هى الخنساء، فى شخصيتها وفى شعرها، لعلنا قد وفقنا فى عرض صورتها، والحمد لله رب العالمين.

عبدالستار على السطوحى
محاضر بكلية دار العلوم
ذو القعدة ١٤٢٣هـ - يناير ٢٠٠٣



الفهـــرس

رقم الإيداع ٣٦٧٤/ ٢٠٠٣

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ - شارع نشاطى شبرا القاهرة
ت : ٥٧٨٧٩١٨ - ٥٧٩٩٩٤٢
الرقم البريدي : ١١٢٣١